

المجلد السادس

من صفحة 376 -

حتى اجتمع إليهم من ذلك أمم كان فيهم من رياح وزغب والشريد وعوف ودباب ونغاث. واختلفوا في الاحتشاد وأجمعوا دخول أفريقية فبادرهم أبو محمد قبل وصولهم إليها. وخرج من تونس سنة ست وستمئة وأعدَّ السير إليهم، وتزاحفوا عند جبل نفوسة، واشتدت الحرب. ولما حمى الوطيس ضرب أبو محمد أبنتيه وفسطاطه. وتحيز إليه بعض الفرق من بني عوف بن سليم واحتل مصاف ابن غانية. واتبعه الموحدون إلى أن دخل في غيابات الليل وامتلت أيديهم بالأسرى والغنائم، وسيقت طعائين العرب. وقد كانوا قدموها بين أيديهم للحفيظة وأفذاذاً في الكر والفِرِّ فأصبحت مغنماً للموحدين وربات خدورهم سبياً.

وهلك في المعركة خلق من الملتمين وزناتة والعرب، كان فيهم عبد الله بن محمد بن مسعود البليط بن سلطان وشيخ الدواودة، وابن عمه حركات بن أبي شيخ بن عساكر بن سلطان وشيخ بني قرّة وجرار بن ويغزن كبير مغراوة ومحمد بن الغازي بن غانية في آخرين من أمثالهم. وانصرف ابن غانية مهيبض الجناح مفلول الحدِّ عفوفاً بالبأس من جميع جهاته، وانقلب أبو محمد والموحدون أعزّةً ظاهرين، واستفحل أمر أبي محمد بأفريقية وحسم علل الفساد منها واستوفى جبايتها. وطالت مواقف حروبه ولم تهزم له فيها راية. وهلك الناصر وولي ابنه يوسف المستنصر، واستبد عليه المشيخة لمكان صغره، وشغلوا بفتنة بني مَرين وظهورهم بالمغرب، فاستكفى بالشيخ أبي محمد في أفريقية وعول على غنائه فيها، وضبطه لأحوالها وقيامه بملكها فأبقاه على عملها، وسرب إليه الأموال لنفقاتها وأعطياتها، ولم يزل بها إلى أن هلك سنة ثمان عشرة وستمئة والله أعلم.

الخبر عن مهلك الشيخ أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص وولاية ابنه عبد الرحمن:

كانت وفاة الشيخ أبي محمد فاتح سنة ثمان عشرة وستمئة. ولما هلك ارتاع الناس لمهلكه، وافترق الموحدون في الشورى فريقين بين عبد الرحمن ابن الشيخ أبي

محمد وإبراهيم ابن عمه إسماعيل ابن الشيخ أبي حفص، فترددوا ملياً ثم اتفقوا على الأمير أبي زيد عبد الرحمن ابنه، وأعطوه صفقة أيمانهم، وأقعدوه بمجلس أبيه في الإمارة، فسكن الثائر وشمّر للقيام بالأمر عزائمهم. وأفاض العطاء وأجاز الشعراء. واستكتب أبا عبد الله بن أبي الحسين، وخاطب المستنصر بالشأن. وخرج في عساكره لتمهيد النواحي وحماية الجوانب إلى أن وصل كتاب المستنصر بعزله لثلاثة أشهر من ولايته حسبما ذكره، فارتحل إلى المغرب ومعه إخوانه. وكاتبه ابن أبي الحسين ولحق بالحضرة.

الخبر عن ولاية السيد أبي العلا علي أفريقية وابنه أبي زيد من بعده وأخبارهم فيها واعتراضاتهم في الدولة الحفصية:

لما بلغ الخبر إلى مراکش بمهلك أبي محمد بن أبي حفص، وقارن ذلك عزلة السيد أبي العلا من أشبيلية، ووصوله إلى الحضرة مسخوطاً: وهو أبو العلا إدريس بن يوسف عبد المؤمن أخو يعقوب المنصور، وعبد الواحد المخلوع المبايع له بعد ذلك. وعول على الوزير ابن المثنى في جبر حاله فسعى له عند الخليفة، وعقد له على أفريقية، ووصل الخطاب بولايته ونيابة إبراهيم بن إسماعيل ابن الشيخ أبي حفص عنه خلال ما يصل، واستقدام أبناء الشيخ أبي محمد إلى الحضرة. وقرىء الكتاب شهر ربيع الأول من سنة ثمانى عشرة وستمائة، فقام الشيخ بالنيابة في أمره، واستعمل أحمد المشطب في وزارته، وغلب عليه بطانته، وأساء في الموالاتة لقربائه. واختص أبناء الشيخ أبا محمد بقبيحة، وظن امتداد الدولة له. ووصل السيل أبو العلا شهر ذي القعدة من السنة، فنزل بالقصبة ونزل ابنه السيد أبا زيد بقصر ابن فاخر من البلد، ورتب الأمور ونهج السنن.

ولشهر من وصوله تقبض على محمد بن نخيل كاتب الشيخ أبي محمد، وعلى أخويه

أبي بكر ويحيى، واستصفى أموالهم واحتاز عقارهم وضياعهم. وكان المستنصر عهد إليه بذلك، لما كان اشفه بفلتات من القول والكتاب تنمى إليه أيام رياسته في خدمة أبي محمد، فاعتقلهم السيد أبو العلا، ثم قتله وأخاه يحيى لشهر من اعتقالهما بعد أن فر من سجنه وتقبض فقتل. ونقل أبو بكر إلى مطبق المهديّة فأردع به.

وخرج السيد أبو العلا من تونس سمة تسع عشرة وستمئة في عساكر الموحدين إلى نواحي قابس لقطع أسباب ابن غانية منها، فنزل قصر العروسيين، وسرح ولده السيد أبا زيد في عسكر من الموحدين إلى درج وغدامس من بلاد الصحراء لتمهيدها وجبايتها. وقدم بين يده عسكرياً. آخراً لمنازلة ابن غانية بوّدان، وواعدهم هناك منصرفه من غدامس فأرجف بهم العرب في طريقهم بمداخلة ابن غانية. ومال بذله في ذلك فانفض العسكر، وزحفوا إلى قابس. وأهمل السيد أبو زيد في غدامس إليهم فلقية خبر مفرهم. فلحق بأبيه وأخبره بالجلي في أمرهم، فسخط قائد العسكر وهم بقتله. وطرق السيد أبا العلا المرض فرجع إلى تونس. وبلغه أن ابن غانية نهض من وّدان إلى الزاب، وأن أهل بسكرة أطاعوه فسرح السيد أبا زيد في عساكر الموحدين إليه، ودخل ابن غانية الرمل فأعجزهم.

ورجع السيد أبو زيد إلى بسكرة فأنزل بهم عقابه من النهب والتخريب، ورجع إلى تونس. ثم بلغه أن ابن غانية قد رجع إلى جوانب أفريقية، واجتمع إليه أخلاط من العرب والبربر، فسرح السيد أبا زيد إليه في العساكر ونزل بالقيروان، وخالفه ابن غانية إلى تونس فقصده السيد أبو زيد ومعه العرب وهوارة بطعائهم ومواشيهم. وتزاحفوا بمجدول فاتح إحدى وعشرين وستمئة، واشتد القتال وعضت الموحدون الحرب، وأبلى هوارة وشيخهم بعرة ابن حناش بلاء جميلاً وضرب بنتيه وتناغوا في الثبات والصبر فانهزم الملتئمون وانجلت المعركة عن حصيد من القتلى من أصحاب ابن غانية، واستولى الموحدون على معسكرهم.

وكان بلغ السيد أبا زيد خبر مهلك أبيه السيد أبي العلا بتونس في شعبان سنة عشرين وستمئة. فلما فرغ من مواجهة ابن غانية رجع إلى تونس وأقصر عن متابعتها. وخاطب المستنصر بمهلك أبيه وواقعه الملتئمين، وكان المستنصر قد عزله واستبدل منه بأبي

يحيى بن أبي عمران التينملي صاحب ميورقة، ولم يصل إليه الخبر بعزله بعد. وهلك الملك المستنصر إثر ذلك سنة عشرين وستمائة، وولي عبد الواحد المخلوع ابن يوسف بن عبد المؤمن فنقض تلك العقدة، وكتب إلى السيد أبي زيد بالإبقاء على عمله، ونقض ما أصدر المستنصر من عزله، فأرسل عنانه في الولاية، وبسط يده في الناس بمكروهه، وتنكرت له الوجوه، وانحرف عنه الناس، بما كانوا عليه من الصاغية لأبي محمّد بن أبي حفص وولده، إلى أن عزل واستبدل بهم كما نذكره، وركب البحر بذخائره وأهله فلحق بالحضرة.

الخبر عن ولاية أبي محمد عبد الله بن أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص وما كان فيها من الأحداث:

لما هلك المخلوع وولي العادل، ولى على أفريقية أبا محمد عبد الله بن أبي محمد عبد الواحد. وولى على بجاية يحيى بن الأطاس التينملي، وعزل عنها ابن يغمور. وكتب إلى السيد أبي زيد بالقدوم. وكتب أبو محمد عبد الله إلى ابن عمه موسى بن إبراهيم ابن الشيخ أبي حفص بالنيابة عنه خلال ما يصل، فخرج السيد أبو زيد في ربيع الآخر سنة ثلاث وعشرين وستمائة، واستقل أبو عمران موسى بأمر أفريقية، واستمرت نيابته عليها زهاء ثمانية أشهر. وخرج أبو محمد عبد الله من مراکش إلى أفريقية.

ولما انتهى إلى بجاية قدم بين يديه أخاه الأمير أبا زكريا ليعترضه طبقات الناس للقاءه، فوصل إلى تونس في شعبان من هذه السنة بعد أن أوقع في طريقه بولهاصة. وكان أولاد شدّاد رؤسائهم قد جمعوا لاعتراضه بناحية بونة، فسرح أخاه الأمير أبا زكريا لحسم دائهم ولخروج الطبقات من أهل الحضرة للقاءه فكان كذلك. وخرج في رمضان من سنته، وخرج معه الناس على طبقاتهم فلقوه بسطيف، ووصل إلى الحضرة في ذي القعدة من آخر السنة، وتزحزح أبو عمران عن النيابة. ثم لحقه من المغرب أخوه أبو إبراهيم في صفر سنة أربع وعشرين وستمائة، فعقد له على بلاد قسطلية وعقد لأخيه الأمير أبي زكريا على قابس وما إليها، وذلك في جمادى من

هذه السنة.

وبعد استقراره بتونس بلغه أن ابن غانية دخل بجاية عنوة، ثم تخلى كذلك إلى تدلس، وأنه عاث في تلك الجهات فرحل من تونس وعقد لأخويه كما ذكرناه. وأغذ السير إلى فحص أبة فصيح به هواره، وقد كان بلغه عنهم السعي في الفساد، فأطلق فيهم أيدي عسكره، واعتقل مشايخهم وأنفذهم إلى المهديّة. ثم مر في أتباع ابن غانية، فأنتهى إلى بجاية، وسكن أحوالها، ثم إلى متيحة ومليانة فأدركه الخبر أن ابن غانية قصد سجلماسة فانكفاً راجعاً إلى تونس ودخلها في رمضان سنة أربع وعشرين وستمائة، ولم يزل مستبداً بإمارته إلى أن ثار عليه الأمير أبو زكريا، وغلبه على الأمر كما نذكر.

الخبر عن ولاية الأمير أبي زكريا ممهد الدولة لآل أبي حفص بأفريقية ورافع الراية لهم بالملك وأولية ذلك وبدايته:

لما قتل العادل بمراكش سنة أربع وعشرين وستمائة، وبوع المأمون بالأندلس بعث إلى أبي محمد عبد الله بتونس ليأخذ له البيعة على من بها من الموحدين. وكان المأمون قد فتح أمره بالخلاف، ودعا لنفسه قبل موت أخيه العادل بأيام، فامتنع أبو محمد ورد رسله إليه، فكتب بذلك لأخيه الأمير أبي زكريا وهو بمكانه من ولاية قابس. وعقد له على أفريقية فأخذ له البيعة على من إليه، ودخله في شأنها ابن مكّي كبير المشيخة بقابس. واتصل ذلك بأبي محمد فخرج من تونس إليهم. ولما انتهى إلى القيروان نكر عليه الموحدون نهوضه إلى حرب أخيه، وانتقضوا عليه وعزلوه. وطير بالخبر إلى أخيه في وفد منهم فالفوه معملاً في اللحاق برخاب بن محمد وأعراب طرابلس، فبايعوه ووصلوا به إلى معسكرهم. وخلع أبو محمد نفسه، ثم ارتحل الأمير أبو زكريا إلى تونس فدخلها في رجب من سنة خمس وعشرين وستمائة، وأنزل أخاه

أبا محمد بقصر ابن فاخر، وتقبض على كاتبه أبي عمرو طرا من الأندلس. واستكتبه أبو محمد فغلب على هؤاه، وكان يغريه بأخيه، فبسط الأمير أبو زكريا عليه العذاب إلى أن هلك. ثم بعث أخاه أبا محمد في البحر إلى المغرب فاستبد بملكه، واستوزر ميمون بن موسى الهنتاتي، واستقامت أموره.

الخبر عن استبداد الأمير أبي زكريا بالأمر لبني عبد المؤمن:

لما اتصل به ما أتاه المأمون من قتل الموحدين بمراكش، وخصوصاً هنتاتة وتينملل. وكان منهم أخواه أبو محمد عبد الله المخلوع وإبراهيم، وأنه أشاع النكير على المهدي في العصمة، وفي وضع العقائد والنداء للصلوات باللسان البربري، وإحداث النداء للصبح وتربيع شكل الدرهم وغير ذلك من سننه. وأنه غير رسوم الدعوة، وبدل أصول الدولة. وأسقط إسم الإمام من الخطبة والسكة وأعلن بلغنه. ووافق بلوغ الخبر بذلك وصول بعض العمال إلى تونس بتولية المأمون فصرفهم، وأعلن بخلعه سنة ست وعشرين وستمائة. وحول الدعوة إلى يحيى ابن أخيه الناصر المنتزي عليه بجيل الهساكرة. ثم اتصل به بعد ذلك عجز يحيى واستقلاله، فأغفله واقتصر على ذكر الإمام المهدي، وتلقب بالأمير ورسم علامته به في صدور مكتوباته. ثم جدد البيعة لنفسه سنة أربع وثلاثين وستمائة، وثبت ذكره في الخطبة بعد ذكر الإمام مقتصرأ على لفظ الأمير لم يجاوزه إلى أمير المؤمنين. وخاض أولياء دولته في ذلك حتى رفع إليه بعض شعرائه في مفتتح كلمة مدحه بها:

٦ الأصل بالأمير المؤمنينا فأنت بها أحق العالمينا

فحزحهم عن ذلك وأبى عنه، ولم يزل على ذلك إلى آخر دولته.

الخبر عن فتح بجاية وقسطنطينة:

لما استقل الأمير أبو زكريا بالأمر بتونس، وخلع بني عبد المؤمن، نهض إلى قسطنطينة

سنة ست وعشرين وستمائة، فنزل بساحتها وحاصرها أياماً. ثم داخله ابن علفاس في شأنها وأمكنه من غرتها فدخلها، وتقبض على واليها السيد ابن السيد أبي عبد الله الخرصاني بن يوسف العشري. ووئى عليها ابن النعمان. ورحل إلى بجاية فافتتحها، وتقبض على واليها السيد أبي عمران ابن السيد أبي عبد الله الخرصاني وصيرهما معتقلين في البحر إلى المهديّة. واجريت عليهما هنالك الأرزاق، وبعث بأهلها وولدهما مع ابن أوماز إلى الأندلس، فنزلوا بأشبيلية. وبعث معهما إلى المهديّة في الاعتقال محمد بن جامع وابنه وابن أخيه جابر بن عون بن جامع من شيوخ مرداس عوف، وابن أبي الشيخ بن عساكر من شيوخ الذواودة، فاعتقلوا بمطابق المهديّة وكان أخوه أبو عبد الله اللحياني صاحب أشغال بجاية فصار في جملة، وولاه بعدها الولايات الجليّة، وكان يستخلفه بتونس في مغيبه. وفي هذه السنة تقبض على وزيره ميمون بن موسى وأستصفى أمواله، وأشخصه إلى قابس فاعتقل بها مدة. ثم غربه إلى الإسكندرية، وأستوزر مكانه أبا يحيى بن أبي العلاء بن جامع، إلى أن هلك؛ فاستوزر بعده أبا زيد ابن أخيه الآخر محمد إلى أن هلك.

الخبر عن مهلك ابن غانية وحركة السلطان إلى بجاية وولاية ابنه الأمير أبي يحيى زكريا عليها:

لما استقل الأمير أبو زكريا بأفريقية وخلع طاعة بني عبد المؤمن صرف عزمه أولاً إلى مدافعة يحيى بن غانية عن نواحي أعماله، فكانت له في ذلك مقامات مذكورة، وشرده عن جهات طرابلس والزاب وواركلا. واختط بواركلا المسجد لما نزلها في أتباعه، وأنزل بالأطراف عساكره وعماله لمنعها دونه. ولم يزل ابن غانية وأتباعه من العرب من أفريق سليم وهلال وغيرهم على حالهم من التشريد والجلاء، إلى أن هلك سنة إحدى وثلاثين وستمائة، وانقطع عقبه فانقطع ذكره، ومحا الله آثار فتنه من الأرض. واستقام أمر الدولة ونبضت منها عروق الاستيلاء واتساع نطاق الملك.

ونَهَضت عزائمُه إلى تدويخ أرض المغرب فخرج من تونس سنة إثنَين وثلاثين وستمائة يؤم بلاد زناتة بالمغرب الأوسط. وأغذ السير إلى بجاية فتلوم بها. ثم ارتحل إلى الجزائر فافتتحها وولى عليها. ثم نهض منها إلى بلاد مغراوة فأطاعه بنو منديل بن عبد الرحمن. وجاهر بنو توجين بخلافه فنزل البطحاء وأوقع بهم. وتقبض على رئيسهم عبد القوي بن العباس فاعتقله، وبعث به إلى تونس ودوخ المغرب الأوسط وقفل راجعاً إلى حضرته. وعقد مرجعه من المغرب لابنه الأمير أبي يحيى زكريا علي بجاية وأنزله بها. واستوزر له يحيى بن صالح بن إبراهيم الهنتاتي وجعل شواره لعبد الله بن أبي تهدي، وجبايته لعبد الحق بن ياسين، وكلهم من هنتاتة. وكتب إليه بوصيته مشتملة على جوامع الخلال في الدين والملك والسياسة، يجب إثباتها لشرف مغزاها وغبابة معناها ويأتي نصّها فيما بعد.

الخبر عن سطوة السلطان بهوارة:

كان لهوارة هؤلاء بأفريقية ظهور وعدد منذ عهد الفتح، وكانت دولة العبيديين قد جرت عليهم بكلكلها لما كان منهم في فتنة أبي يزيد كما نذكره في أخبارهم. وبقي منهم فلّ بجبل أوراس وما بعده من بلاد أفريقية وبسائطها إلى أبة ومرماجنة وسببية وتبرسق. ولما انقرض ملك صنهاجة بالموحدين وتغلب الأعراب من هلال وسليم على سائر النواحي بأفريقية، وكثروا ساكنها، وتغلبوا عليهم أخذ هذا الفل بمذهب العرب وشعارهم وشارتهم في اللبوس والزي والظعون وسائر العوائد. وهجروا لغتهم العجمية إلى لغتهم، ثم نسوها كأن لم تكن لهم، شأن المغلوب في الاقتداء بغالبه. ثم كان لهم انحياش أول الدولة إلى الطاعة بغلب عبد المؤمن وقومه. فلما استبد الأمير أبو زكريا، وانقلبت الدولة إلى بني أبي حفص ظهر منهم التياث في الطاعة، وامتناع عن المغرم، وأضرار بالسابلية، فاعتمل السلطان في أمرهم. وخرج من تونس سنة ست وثلاثين وستمائة مورياً بالجزو إلى أهل أوراس، وبعث في احتشادهم فتوافدوا في معسكره. ثم صبحهم في عسكره من الموحدين والعرب ففتك بهم قتلاً وسبياً، واكتسح أموالهم وقتل كبيرهم أبو الطيب بكرة ابن حناش وأفلت من أفلت منهم ناجياً

بنفسه، عارياً من كسبه، فألانت هذه البطشة من حدّهم
وخصّدت من شوكتهم، واستقاموا على الطاعة بعد.

الخبر عن ثورة الهرغي بطرابلس ومآل أمره:

كان هذا الرجل من مشيخة الموحدين وهو يعقوب بن يوسف بن محمد الهرغي ويكنى بأبي عبد الرحمن، وكان الأمير أبو زكريا وقد عقد له على طرابلس وجهاتها، وسرّح معه معسكراً من الموحدين لحمايتها من أعراب دباب من بني سليم، فقام بأمرها واضطلع بجباية رعاياها. واستخدم العرب والبربر الذين بساحتها وكان بينه وبين الجوهرى مصدوقة ود. فلما قتل الجوهرى سنة تسع وثلاثين وستمئة كما قدّمناه استوحش لها يعقوب الهرغي واستقدمه السلطان فتلكاً، وبعث عنه أخاه ابن أبي يعقوب فزاد نفاره، وحدثته نفسه بالاستبداد لما كان أثرى من الجباية وشعر لها أهل البلد. فانطلقوا وهم يتخافون أن يعاجلوه قبل مداخلته العرب في أمره، فتقبّضوا عليه وعلى أخيه وعلى أتباعهما ليلة أجمعوا الثورة في صباحها. وطيّروا بالخبر إلى الحضرة فنفذ الأمر بقتلهم فقتلوا، وبعث برؤوسهم إلى باب السلطان، ونصبت أشلاؤهم بأسوار طرابلس، وأصبحوا عبرةً للمعتبرين وأنشد الشعراء في التهنية بهم وقامت للبشائر سوق لكائناتهم.

وكان ممن قتل معه محمد ابن قاضي القضاة بمراكش أبي عمران بن عمران. وصل علقا إلى تونس وقصد طرابلس فاتصل بهذا الهرغي، ونمى عنه أنه أنشأ خطبة ليوم البيعة فكانت سائقة حتفه. وكان بالمهدية رجل من الدعاة يعرف بأبي حمراء اشتهر بالنجدة في غزو البحر وقدّم على الأسطول فردد الغزو حتى هابه الغزى من أمم الكفر، وأمنت سواحل المسلمين من طروقهم. وطار له فيها ذكر ونمي أنه كان مداخلًا للجواهرى والهرغي، وأن القاضي بالمهدية أبا زكريا البرقي اطلع على دسيستهم في ذلك، فنفذ الأمر السلطاني للوالي بها أبي علي بن أبي موسى بن أبي

حفص بقتل ابن أبي الأحمر، وإشخاص القاضي إلى الحضرة معتقلاً، فأمضى عهده. ولما وصل البرقي إلى تونس فحفص السلطان عن شأنه فبريء من مداخلتهم، فسرحه وأعادته إلى بلده. وقتل بالحضرة رجل آخر من الجند اتهم بمداخلتهم وسعايته في قيامهم، وكان له تعلق برحاب بن محمود أمير دباب، فأوعز السلطان إلى بعض الدعار من زناته، فقتله غيلة ثم أهدر دمه. وتتبع أهل هذه الخائنة بالقتل حتى حسم الداء، ومحا شوائب الفتنة.

الخبر عن بيعة بلنسية ومرسية وأهل شرق الأندلس ووفدهم:

لما استقل أبو جميل زيّان بن أبي الحملات مدافع بن أبي الحجاج بن سعد ابن مردنيش بملك بلنسية، وغلب عليها السيّد أبا زيد ابن السيد أبي حفص، وذلك عند خمود ربح بني عبد المؤمن بالأندلس، وخروج ابن هود على المأمون، ثم فتنته هو مع ابن هود، وثورة ابن الأحمر بأرجونة، واضطراب الأندلس بالفتنة. وأسف الطاغية إلى ثغور الأندلس من كل جانب. وزحف ملك أرغون إلى بلنسية فحاصرها وكانت للعدو سنة ثلاث وثلاثين وستمائة سبع محلات لحصار المسلمين: إثنان منها على بلنسية، وجزيرة شقر وشاطبة. ومحلة بجيان ومحلة بطييرة ومحلة بمرسية ومحلة بليلة، وأهل جنوة من وراء ذلك على سبته.

ثم تملك طاغية قشتالة مدينة قرطبة، وظفر طاغية أرغون بالكثير من حصون بلنسية والجزيرة، وبنى حصن أنيشة لحصار بلنسية. وأنزل بها عسكره وانصرف، فاعتزم زيّان بن مردنيش على غزو من بقي بها من عسكره، واستنفر أهل شاطبة وشقر وزحف إليهم فانكشف المسلمون، واصيب كثير منهم. واستشهد أبو الربيع بن سالم شيخ المحدّثين بالأندلس، وكان يوماً عظيماً، وعنواناً على أخذ بلنسية ظاهراً. ثم ترددت عليها سرايا العدو. ثم زحف إليها طاغية أرغون في رمضان سنة خمس وثلاثين وستمائة فحاصرها واستبلغ في نكايتها. وكان بنو عبد المؤمن بمراكش قد فشل ربحهم، وظهر أمر بني أبي حفص بأفريقية، فأمل ابن مردنيش وأهل شرق

الأندلس الأمير أبا زكريا للكرة، وبعثوا إليه بيعتهم، وأوفد عليه
ابن مردنيش كاتبه الفقيه أبا عبد الله بن الأبار صريخاً، فوفد وأدى
بيعتهم في يوم مشهود بالحضرة، وأنشد في ذلك المحفل
قصيدته على روي السنين، يستصرخه فيها للمسلمين وهي هذه:

- # ㄱ أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى
منجاتها درس
- # ㄴ وهب لها من عزيز النصر ما التمسست فلم يزل منك
عز النصر ملتمسا
- # ㄷ عاش مما تعانیه حشاشتها فطالما ذاقت
البلوى صياح مسا
- # ㄹ يا للجزيرة اضحى اهلها جزراً للنائبات وامسى
جدها تعسا
- # ㅁ في كل شارقة إمام بائقة يعود مأتها عند
العدى عرسا
- # ㅂ وكل غارية أجحاف نائبة تشني الامان حذاراً
والسرور أسا
- # ㅅ قاسم الروم لا نالت مقاسمهم إلا عقائلها
المحجوبة ما الأنسا
- # ㅇ وفي بلنسية منها وقرطبة ما يذهب النفس او ما
ينزف النفسا
- # ㅈ مدائن حلها الأشراك مبتسماً جذلان وارتحل الإيمان
منبئسا
- # ㅊ وصيرتها العوادي عاثات بها يستوحش الطرف منها
ضعف ما إنسا
- # ㅋ ما للمساجد عادت للعدى بيعاً وللنداء يرى أثناءها
جرسا

مدارساً للمثاني	لهفأً عليها إلي استرجاع فائتها اصبحت درسا	≡#
ما شئت خلغ من موشية	وأربعاً غنمت ايدي الربيع بها وكسا	≡#
فصوخ النضر من أدواها	كانت حدائق للاحداق مونقة وعسا	⊖#
يستوقف الركب او	وحال ما حولها من منظر عجب يستركب الجلسا	⊖#
عيث الدبا في	سرعان ما عاث جيش الكفر واحربا مغانيها التي كبسا	⊖#
تحيف الأسد الضاري لما	وابتز بزتها مما تحيفها افترسا	⊖#

واين غصن جنيناه بها	فأين عيش جنيناه بها خضراً	ㄱ#
	سلسا	
ما نام عن هضمها حيناً	محا محاسنها طاعاً اتيح لها	ㄱ#
	وما نعسا	
فغادر الشمم من أعلامها	ورج أرجاءها لمّا أحاط بها	ㄴ#
	خنسا	
إدراك ما لم تنل	خلا له الجوّ وامتدّت يدها إلى	ㄷ#
	رجلاه مختلسا	
ولو رأى راية	وأكثر الزعم بالتثليث منفرداً	ㄹ#
	التوحيد ما نبسا	
أبقى المراس	صل حبلها أيها المولى الرحيم فما	ㅁ#
	لها حبلاً ولا مرسا	
احييت من دعوة	وأحي ما طمست منها العداة كما	ㅂ#
	المهديّ ما طمسا	
وبت من نور ذاك الهدى	أيام صرت لنصر الحق مستبقاً	ㅅ#
	مقتبسا	
كالصارم اهتزازاً	وقمت فيها لامر الفه منتصراً	ㅇ#
	كالعارض انبجسا	
والصبح ما حية	تمحو الذي كتب التجسيم من ظلم	ㅈ#
	أنواره الغلسا	
وأنت أفضل مرجو	هذي رسائلها تدعوك من كتب	ㅊ#
	لمن يئسا	
منك الأمير الرضي	وافتك جارية بالنجح راجية	ㅋ#
	والسيّد الندسا	
عبابه فتعاني اللين	خاضت خضارة يعلوها ويخفضها	ㅌ#
	والشرسا	
كما طلبت بأقصى شدة	وربما سبحت والريح عاتية	ㅍ#
	الفرسا	

حفص مقبلة من	تؤمّ يحيى بن عبد الواحد بن أبي	# ٥
دنياً ودنيا فغشّاه الرضي	ملك تقلّد الاملاك طاعته	# ٦
وكل صادٍ إلى نعماه	من كلّ غادٍ على يمناه مستلما	# ٧
ولودعا أفقاً لبّي وما	مؤيّد لورمي نجما لأثبته	# ٨
ودولة عزها يستصحب	أمارة تحمل المقدار رايتها	# ٩
ويطلع الليل من	بيدي النهار بها من ضوئه شنباً	# ١٠
	ظلمائه لعسا	

تحفّ من حوله شهب	كأته البدر والعلياء حالته	ㄇ# القنا حرسا
اعزّمن خطّيه ما سما	له الثرى والثريا خطّتان فلا	ㄏ# ورسا
علياء توسع أعداء الفدى	يأيّها الملك المنصور انت لها	○# تعسا
يحيى بقتل ملوك الصفر	وقد تواترت الانباء أنّك من	ㄗ# أندلسا
ولا طهارة ما لم تغسل	طهّر بلادك منهم إيّهم نجس	ㄘ# النجسا
حتّى يطأطىء رأس	وأوطئ الفيلق الجرّار أرضهم	ㄙ# كل من رأسا
عيونهم أدمعا	وانصر عبيداً بأقصى شرقها شرقت	ㄚ# تهمي زكا وخسا
داءً متى لم	هم شيعة الأمر وهي الدار قد نهكت	ㄛ# تباشر حسمه انتكسا
جردا سلاهب او خطية	اما هنيئاً لك التمكين ساحتها	ㄜ# دعسا
لعلّ يوم الأعادي قد	واضرب لها موعداً بالفتح ترقبه	ㄝ# أتى وعسا

فأجاب الأمير أبو زكريا داعيتهم، وبعث إليهم أسطوله مشحوناً بمدد الطعام والأسلحة والمال، مع أبي يحيى بن يحيى ابن الشهيد أبي إسحاق بن أبي حفص. وكانت قيمة ذلك مائة ألف دينار. وجاءهم الأسطول بالمدد وهم في هذا الحصار، فنزّجهم بمرسى دانية واستفرغ المدد بها ورجع بالناص إذا لم يخلص إليه من قبل ابن مردنيش من يتسلمه. واشتد الحصار على أهل بلنسية، وعدمت الأقوات وكثر الهلاك من الجوع، فوقعت المفاوضة على إسلام البلد فتسلمها جاقمة ملك أرغون في صفر سنة ست وثلاثين وستمائة، وخرج عنها ابن مردنيش إلى جزيرة شقر، فأخذ البيعة على أهلها للأمير أبي زكريا. ورجع ابن الأبار إلى تونس، فنزل على السلطان وصار في جملته، وألح العدو على حصار ابن مردنيش بجزيرة شقر، وأزعجه عنها إلى دانية فدخلها في رجب من سنته، وأخذ عليهم البيعة للأمير أبي زكريا.

ثم داخل أهل مرسية، وقد كان بوع بها أبو بكر عزيز بن عبد الملك بن خطاب في مفتتح السنة، فافتتحها عليه في رمضان من سنته وقتله، وبعث ببيعتهم إلى الأمير أبي زكريا. وانتظمت البلاد الشرقية في طاعته، وانقلب وفد ابن مردنيش إليه من تونس بولايته على عمله سنة سبع وثلاثين وستمائة، ولم يزل بها إلى أن غلبه ابن هود

على مرسية، وخرج عنها إلى لقنص الحصون سنة ثمان وثلاثين وستمائة، إلى أن أخذها طاغية برشلونة من يده سنة أربع وأربعين وستمائة، وأجاز إلى تونس، والبقاء لله.

الخبر عن المجوسي وأوليته ومال أمره:

اسم هذا الرجل: محمد بن محمد الجوهري، وكان مشتهراً بخدمة ابن أكمازير الهنتاتي والي سبتة وعمارة من أعمال المغرب. وكان حسن الضبط مترامياً إلى الرياسة. ولما ورد على تونس وتعلق بأعمال السلطان نظر فيما يزلفه ويرفع من شأنه فوجد جباية أهل الخيام بأفريقية من البرابرة الموطنين مع الأعراب غير منضبطة ولا محصلة في ديوان، فنبه على أنها مأكلة للعمال ونهية للولاة، فدفع إليها فأنمى جبايتها وقرر ديوانها، وصارت عملاً منفرداً يسمى عمل العمود وطار له بذلك بين العمال ذكر، جذب له السلطان أبو زكريا بضبعه، وعوّل على نصيحته وأثره باختصاصه. ووافق ذلك موت أبي الربيع الكنفيتي المعروف بابن الغريغر صاحب الأشغال بالحضرة، فاستعمل مكانه وكان لا يلي ذلك الخطة إلا كبير من مشيخة الموحدين فرشحه السلطان لها لكفايته وعنائه، فظفر منها بحاجة نفسه، واعتدها ذريعة إلى امنيته، فاتخذ شارة أرباب السيوف، وارتبط الخيل واتخذ الآلة في حروبه مع أهل البادية إذا احتاج إليها.

وأسف أثناء ذلك أبا علي بن النعمان وأبا عبيد الله بن أبي الحسن بعدم الخضوع لهما، فنصبا له، وأغريا به السلطان، وحذراه غائلة عصيانه. وكان فيه إقدام أوجد به السبيل على نفسه، ويحكى أن السلطان استشاره ذات يوم في تقويم بعض أهل الخلاف والعصيان فقال له: عندي ببابك ألف من الجنود أرم بها من تشاء من أمثالهم، فأعرض عنه السلطان واعتدها عليه. وجعلها مصداقاً لما نمي عنه. ولما

قدم عنه عبد الحق بن يوسف بن ياسين على الأشغال ببجاية مع زكريا ابن السلطان، أظهر له الجوهرى أن ذلك بسعايته، وعهد إليه بالوقوف عند أمره والعمل بكتابه فألقى عبد الحق ذلك إلى الأمير أبي زكريا فقام لها وقعد، وأنف من استبداد الجوهرى عليه. ولم تزل هذه وأمثالها تعذ عليه حتى حق عليه القول فسطا به الأمير أبو زكريا وتقبض عليه سنة تسع وثمانين وستمئة وستمئة وستمئة وستمئة، ووكّل امتحانه إلى أعدائه ابن برعان والندرومي، فتجلد على العذاب وأصبح في بعض أيامه ميتاً بحبسه. ويقال خنق نفسه والقي شلوه بقارعة الطريق فتفنن أهل الشمات في العيث به، وإلى الله المصير.

الخبر عن فتح تلمسان ودخول بني عبد الواد في الدعوة الحفصية:

كان الأمير أبو زكريا منذ استقل بأمر أفريقية واقتطعها عن بني عبد المؤمن كما ذكرناه متطاولاً إلى ملك الحضرة بمراكش والاستيلاء على كرسي الدعوة. وكان يرى أن بمظاهرة زناتة له على شأنه يتم له ما يسمو إليه من ذلك، فكان يداخل أمراء زناتة فيه ويرغبهم ويراسلهم بذلك على الأحياء من بني مَرين وبني عبد الواد وتوجين ومغراوة. وكان يغمراسن منذ تقلد طاعة آل عبد المؤمن أقام دعوتهم بعمله متحيزاً إليهم سلماً لوليهم وحرباً على عدوهم. وكان الرشيد منهم قد ضاعف له البر والخلوص، وخطب منه مزيد الولاية والمصافاة، وعاوده الإتحاف بأنواع الألفاف والهدايا تيمناً لمسراته، وميلاً إليه عن جانب أقتاله بني مَرين المجليين على المغرب والدولة، فاستكبر السلطان أبو زكريا اتصال الرشيد هذا بيغمراسن وآله، وهم جواره بالمحل القريب. وبينما هو على ذلك إذ وفد عليه عبد القوي أمير بني توجين وبعض ولد منديل بن عبد الرحمن أمراء مغراوة صريخاً على يغمراسن فسهلوا له أمره، وسوّلوا له الاستبداد على تلمسان. وجمع كلمة زناتة، وإعداد ذلك ركاباً لما يرومه من امتطاء ملك

الموحدين بمراكش وانتظامه في أمره وسلماً لارتقاء ما يسمو إليه من ملكه، وباباً لولوج المغرب على أهله، فحركه أملاؤهم وهزّه إلى النعرة صريخهم، وأهاب بالموحدين وسائر الأولياء والعساكر إلى الحركة على تلمسان. واستنفر لذلك سائر البدو من الأعراب الذين في طاعته من بني سليم ورياح بظعنهم، فأهبطوا لداعيه. ونهض سنة تسع وثلاثين وستمئة في عساكر ضخمة وجيوش وافرة. وسرح إمام حركته عبد القوي بن العباس وأولاد منديل بن محمد لحشد من بأوطانهم من أحياء زناتة وذؤبان قبائلهم وأحياء زغبة أحلافهم من العرب. وضرب معهم موعداً لموافاتهم في تخوم بلادهم. ولما نزل صحراء زاغر قبلة تيطري منتهى مجالات رياح وبني سليم من المغرب، تثاقل العرب عن الرحلة بظعنهم في ركاب السلطان، وتلووا بالمعاذير فألطف الأمير أبو زكريا الحيلة. زعموا في استنهاضهم وتنبيه عزائمهم، فارتحلوا معه حتى نازل تلمسان بجميع عساكر الموحدين وحشود زناتة وظعن العرب بعد أن كان قدم إلى يغمراسن الرسل من مليانة بالأعدار والدعاء إلى الطاعة، فرجعهم بالخيبة. ولما حلت عساكر الموحدين بساحة البلد، وبرز يغمراسن وجموعه للقاء بصحبتهم ناشية السلطان بالنبل، فانكشفوا ولاذوا بالجدران وعجزوا عن حماية الأسوار، فاستمكنت المقاتلة من الصعود. ورأى يغمراسن أن قد احيط بالبلد فقصده باب العقبة من أبواب تلمسان ملتفياً في ذوبه وخاصته. واعترضه عساكر الموحدين فصمم نحوهم وجندل بعض أبطالهم فأفرجوا له، ولحقوا بالصحراء ونسلت الجيوش إلى البلد من كل حدب، فاقتحموه وعاثوا فيه بقتل النساء والصبيان واكتساح الأموال.

ولما تجلى غشي تلك الهيئة، وحسر تيار الصدمة، وخدمت نار الحرب، راجع الموحدون بصائرهم وأنعم الأمير أبو زكريا نظره فيمن يقلده أمر تلمسان والمغرب الأوسط، وينزله بثغرها لإقامة دعوته الدائلة من دعوة بني عبد المؤمن والمدافعة عنها. واستكبر ذلك أشرافهم وتدافعوه وتبرأ أمراء زناتة ضعفاً عن مقاومة يغمراسن علماً بأنه الفحل الذي لا يقرع أنفه، ولا يطرق غيله ولا يصد عن فريسته.

وسرح يغمراسن الغارات في نواحي المعسكر فاخطف الناس من حوله، واطلعوا من

المراقب عليه. ثم بعث وفده متطارحين على السلطان في الملامة والاتفاق، واتصال اليد على صاحب مراکش طالب الوتر في تلمسان وأفريقية. وأن يفرده بالدعوة الموحدية فأجابه إلى ذلك. ووفدت أمه سوط النساء للاشتراط والقبول فأكرم موصلها وأسنى جائزتها، وأحسن وفادتها ومنقلبها، وسوّغ ليغمراسن في شرطه بعض الأعمال بأفريقية، وأطلق أيدي عماله على جبايته، وارتحل إلى حضرته لسبع عشرة ليلة من نزوله.

وفي أثناء طريقه وسوس إليه الموحدون باستبداد يغمراسن، وأشاروا بإقامة منافسيه من زناتة وأمراء المغرب الأوسط شجى في صدره، ومعتزضاً عن مرامه، وإلباسهم ما لبس من شارة السلطان وزيه، فأجابهم وقلد كلاً من عبد القوي بن عطية التوجيني، والعباس بن منديل المغراوي ومنصور المليكنشي أمر قومه ووطنه، وعهد إليهم بذلك وأذن لهم في اتخاذ الآلة والمراسم السلطانية على سنن يغمراسن قريعهم، فاتخذوه بحضرته وبمشهد من ملأ الموحدين. وأقاموا مراسمها ببابه. وأغذ السير إلى تونس قرير العين بامتداد ملكه، وبلوغ وطره والإشراف على إذعان المغرب لطاعته وانقياده لحكمه، وإدالة دعوة بني عبد المؤمن فيه بدعوته، فدخل الحضرة واقتعد أريكته وأنشده الشعراء في الفتح، وأسنى جوائزهم وتناولت إليه أعناق الآفاق كما نذكره.

الخبر عن دخول أهل الأندلس في الدعوة الحفصية ووصول بيعة إشبيلية وكثير من أمصارها:

كان بأشبيلية أبو مروان أحمد الباجي من أعقاب أبي الوليد وأبو عمرو بن الجد من أعقاب الحافظ أبي بكر الطائر الذكر، ورثا التجلة عن جدهما وأجراهما الخلفاء على سننهم. وكانا مسمتين وقورين متبوعين من أهل بلدهما مطاعين في أفقهما. وكان السادة من بني عبد المؤمن يعولون على شوراها في مصرهما. وكان بعدوة الأندلس التياث في الملك منذ وفاة المستنصر، وانتزى بها السادة واقترقوا. وثار بشرق الأندلس ابن هود وزيان بن مردنيش، وبغربها ابن الأحمر. وغلب ابن هود الموحدون

وأخرجهم عنها. وملك ابن هود أشبيلية سنة ست وعشرين وستمائة واعتقل من كان بها من الموحدين. ثم انتقضا عليه سنة تسع وستمائة بعدها وأخرجوا أخاه أبا النجاة سالماً، وبايعوا الباجي وتسمى بالمعتضد، واستوزر أبا بكر بن صاحب الرد، ودخلت في بيعته قرمونة وحاصره ابن هود فوصل الباجي يده بمحمد بن الأحمر الثائر بأرجونة وجيان بعد أن ملك قرطبة.

وزحف ابن هود إليهم فلقوه وهزموه، ورجعوا ظافرين، فدخل الباجي إلى أشبيلية وعسكر بخارجها، ثم انتهز فرصته في أشبيلية وبعث قريبه ابن أشقيلولة مع أهل أرجونة والنصارى إلى فسطاط الباجي فتقبضوا عليه وعلى وزيره وقتلوهما سنة إحدى وثلاثين وستمائة. ودخل ابن الأحمر أشبيلية، ولشهر من دخوله إليها ثار عليه أهلها ورجعوا إلى طاعة ابن هود، وولى عليهم أخاه أبا النجاة سالماً. ولما هلك محمد بن هود سنة خمس وثلاثين وستمائة صرف أهل أشبيلية طاعتهم إلى الرشيد بمراكش، وولوا علي أنفسهم محمد بن السيد أبي عمران الذي قدمنا أنه كان والياً بقسنطينة، وأن الأمير أبا زكريا غلبه عليها واعتقله، وبعث ولده إلى الأندلس فربي محمد هذا في كفالة أمه بأشبيلية. ولما سار أهل أشبيلية للرشيد قدموه على أنفسهم، وتولى كبر ذلك أبو عمرو بن الجد، وبعثوا وفدهم إلى الحضرة فأقر السيد أبا عبد الله على ولايتهم. واستمرت في دعوة الرشيد إلى أن هلك سنة أربعين وستمائة. وقد ملك الأمير أبو زكريا تلمسان وأشرف على أعمال المغرب، فاقتدوا بمن تقدم إلى بيعته من أهل شرق الأندلس ببلنسية ومرسية، وبايعوا للأمير أبي زكريا بن أبي محمد بن أبي حفص واقتدى بهم أهل شريش وطريف، وبعثوا إليه وفدهم ببيعته سنة إحدى وأربعين وستمائة. وسألوا منه ولاية بعض أهل قرابته فولى عليهم أبا فارس ابن عمه يونس ابن الشيخ أبي حفص، فقدم أشبيلية وقام بأمرها، وسلم له ابن الجد في نقضها وإبرامها.

ثم انتقض عليه سنة ثلاث وأربعين وستمائة وطرده من البلد إلى سبتة واستبد بأمر أشبيلية، ووصل يده بالطاغية. وعقد له السلم وضرب على أيدي أهل المغاورة من الجند وأسقطهم من ديوانه فقتلوه بإملاء قائدهم شفاف واستقل بأمر أشبيلية.

ورجّع أبا فارس بن أبي حفص وولاه بدعوة الأمير أبي زكريا فسخطهم الطاغية لذلك وانتقض عليهم وملك قرمونة ومرشانة. ثم زحف إلى حصرهم وسألوه الصلح فامتنع. وصار أمر البلد شورى بين القائد شفاف وابن شعيب ويحيى بن خلدون ومسعود بن خيار وأبي بكر بن شريح، ويرجعون في أمرهم آخراً إلى الشيخ أبي فارس بن أبي حفص.

وأقاموا في هذا الحصار سنتين ونازلهم ابن الأحمر في جملة الطاغية، وبعث إليهم الأمير أبو زكريا المدد، وجّهز له الأسطول لنظر أبي الربيع بن الغريغر التينملي. وأوعز له إلى سبتة بتجهيز أسطولهم معه فوصل إلى وادي أشبيلية، وغلبهم أسطول الطاغية على مرسية فرجع. واستولى العدو عليها صلحاً سنة ست وأربعين وستمائة بعد أن أعانهم ابن الأحمر بمدده وميرته. وقدم الطاغية على أهل الدخن بها عبد الحق بن أبي محمد البياسي من آل عبد المؤمن، والأمر لله.

الخبر عن بيعة أهل سبتة وطنجة وقصر ابن عبد الكريم وتصاريق أحوالهم ومال أمرهم:

كان أهل سبتة بعد إقلاع المأمون عنهم، ونزول أخيه موسى عنها لابن هود قد انتقضوا وأخرجوا عنهم القشتيني والي ابن هود، وقدموا عليهم أحمد الينشتي وتسمى بالموفق. ثم رجعوا إلى طاعة الرشيد عندما بايعه أهل أشبيلية سنة خمس وثلاثين وستمائة. وتقبضوا على الينشتي وابنه وأدخلوا السيّد أبا العباس ابن السيد أبي سعيد، كان والياً بغمرة فولوه عليهم. ثم عقد الرشيد على ديوان سبتة لأبي عليّ بن خلاص، كان من أهل بلنسية واتصل بخدمة الرشيد فجلّى فيها، ودفعه إلى الأعمال فضبطها فولاه سبتة فاستقل بها. وولى على طنجة يوسف ابن الأمير قائداً على الرحل الأندلسي وضابطاً لقصبتها. حتى إذا هلك الرشيد سنة أربعين وستمائة، وقد استفحل أمر الأمير أبي زكريا بأفريقية، واستولى على تلمسان وبايعه الكثير من أمصار الأندلس، فصرف ابن خلاص وجهه إليه.

وكان قد اقتنى الأموال واصطنع الرجال فدخل في دعوته، وبعث الوفد ببيعته. واقتدى به في ذلك أهل قصر ابن عبد الكريم فبعثوا بيعتهم للأمير أبي زكريا. وعقد

لابن خلاص على سبته وما إليها، فبعث بالهدية إليه في أسطول أنشأه لذلك سمّاه الميمون، وأركب ابنه أبا القاسم فيه وافداً على السلطان، ومعه الأديب إبراهيم بن سهل، فعطب عند إقلاعه. ولما رجع الأسطول من أشبيلية كما قدمناه على بقية هذا العطب وحزن أبي علي بن خلاص على ابنه، رغب من قائده أبي الربيع بن الغريغر أن يحمله بجملته إلى الحضرة، فانتقل بأهله وإحتمل زخيرته. ولما مر الأسطول بمرسى وهران نزل بساحلها فأراح، واحضر له تين فأكله فأصابه مغص في معاه هلك منه فجاءة سنة ست وأربعين وستمئة. وعقد السلطان على سبته لأبي يحيى بن زكريا ابن عمه أبي يحيى الشهيد ابن الشيخ أبي حفص. وبعث معه علي الجباية أبا عمر بن أبي خالد الأشبيلي، كان صديقاً لشفاف وعدواً لابن الجد. ولما قتل شفاف لحق بالحضرة فولاه الأمير أبو زكريا أشغال سبته، واستمرت الحال إلى أن كان من استبداد العزفي بسبته ما نذكره.

الخبر في بيعة المرية:

لما هلك محمد بن هود بالمرية سنة خمس وثلاثين وستمئة كما ذكرناه واسبتد وزيره أبو عبد الله محمد بن الرميمي بها، وضربها لنفسه وضايقه ابن الأحمر فبعث ببيعته سنة أربعين وستمئة إلى الأمير أبي زكريا حين أخذ أهل شرق الأندلس بطاعته. ولم يزل ابن الأحمر يحاصره إلى أن تغلب عليه سنة ثلاث وأربعين وستمئة كما ذكرناه في أخباره. وخرج منها إلى سبته بأهله وذخيرته، وأحله أبو علي بن خلاص محل البر والتكرمة، وأنزله خارج المدينة في بساتين بنيونش، وأجمع الثورة بأبي خلاص، فنذر به وتغير له. فلما رجع الأسطول من أشبيلية ركب الرميمي ولحق بتونس، فنزل على الأمير أبي زكريا وحل من حضرته محل التكرمة. واستوطن تونس، وتملك بها الضياع والقرى، وشيد القصور إلى أن هلك والبقاء لله وحده.

الخبر عن بيعة ابن الأحمر:

كان محمد بن الأحمر قد انتزى على ابن هود ببلده أرجونة، وتملك جيان وقرطبة

وأشبيلية وغرب الأندلس وطالت فتنته مع ابن هود وراجع طاعته. ثم انتقض عليه وباع للرشيد سنة ست وثلاثين وستمئة عندما بايعه أهل أشبيلية وسبته، فلم يزل على ذلك إلى أن هلك الرشيد على حين استفحال ملك الأمير أبي زكريا بأفريقية وتأميله للنصرة والكرة، فحول ابن الأحمر إليه الدعوة، وأوفد بها أبا بكر بن عيَّاش من مشيخة مالقة فرجعهم الأمير أبو زكريا بالأموال للنفقات الجهادية. ولم يزل يواصلها لهم من بعد ذلك إلى أن هلك سنة سبع وأربعين وستمئة، فأطلق ابن الأحمر نفسه من عقال الطاعة واستبد بسلطانه.

الخبر عن بيعة سجلماسة وانتفاضها:

كان عبد الله بن زكريا الهزرجي من مشيخة الموحدين والياً بسجلماسة لبني عبد المؤمن. ولما هلك الرشيد وبوع أخوه السعيد سنة أربعين وستمئة، ونميت إليه عن الهزرجي عظمة من القول خشن بها صدره وبعث إليه مستعباً فلم يعتبه. ومزق كتابه فخشيه الهزرجي على نفسه، واتصل به ما كان من استيلاء الأمير أبي زكريا على تلمسان ونواحيها، فخاطبه بطاعته وأوفد عليه بيعته، فعقد له الأمير أبو زكريا على سجلماسة وأنحائها، وفوض إليه في أمرها ووعد بالمدد من المال والعسكر لحمايتها. وخطب له عبد الله بسجلماسة، وفر إليه من مراكش أبو زيد الكدميوي بن واكك، وأبو سعيد العود الرطب، فلحق بتونس. وأقام أبو زيد معه بسجلماسة. وزحف إليه السعيد سنة إحدى وأربعين وستمئة، وقيل سنة أربعين، ومن معسكره كان مفر أولئك المشيخة. وخاطب السعيد أهل سجلماسة وداخلهم أبو زيد الكدميوي فغدروا بالهزرجي وثاروا به، فخرج من سجلماسة وأسلمها وقام بأمرها أبو زيد الكدميوي. وطير بالخبر إلى السعيد فشكر له فعلته، وغفر له سالفته. وتقبض على عبد الله الهزرجي بعض الأعراب، وأمكن منه السعيد فقتله وبعث برأسه إلى سجلماسة فنصب بها، ورجع من طريقه إلى مراكش وأقامت سجلماسة على دعوة عبد المؤمن إلى أن كان من خبرها ما نذكره في موضعه.

الخبر عن بيعة مكناسة وما تقدمها من طاعة بني مَرين:

كان بين بني عبد الواد وبين بني مَرين منذ أوليتهم وتقليبهم في القفار فتن وحروب، ولكل منهما أحلاف في المناصرة وأشياع. فلما التاثت دولة بني عبد المؤمن غلب كل منهما على موطنه، وكانت السابقة في ذلك لبني عبد الواد لبعدهم عن حضرة مراكش حيث محشر العساكر ويعسوب القبائل. ولما استبد الأمير أبو زكريا بأمر أفريقية، ودوخ المغرب الأوسط وافتتح تلمسان، وأطاعه بنو عبد الواد، حذر بنو مَرين حينئذٍ غائلتهم. وخافوا أن يظاھرهم الأمير أبو زكريا عليهم، فالانوا له في القول ولاطفوه على البعد بالطاعة، وخاطبوه بالتمويل، وأوجبوا له حق الخلافة، ووعدوه أن يكونوا أنصاراً لدعوته وأعاوناً في أمره، ومقدّمة في عسكره إلى مراكش وزحفه. وحملوا من تحت أيديهم من قبائل المغرب وأمصاره على طاعتهم، والاعتصام ببيعتهم ولم تزل المخاطبات بينهم وبين الأمير أبي زكريا في ذلك من أميرهم عثمان بن عبد الحق وأخيه محمد من بعده. ورسلمهم تفد. عليه بذلك مرة بعد أخرى إلى أن هلك الرشيد. وقد استولى الأمير أبو زكريا على تلمسان، ودخل في دعوته قبائل زناتة بالمغرب الأوسط واستشرف أهل الأمصار من العدوتين إلى إيالته. وكان أهل مكناسة قد اعتصموا بوصلة الأمير أبي يحيى بن عبد الحق، وجاءهم وال من مراكش وأساء فيهم السيرة فتوئبوا به وقتلوه. وبعثوا إلى الأمير أبي يحيى بن عبد الحق، فحملهم على بيعة الأمير أبي زكريا فأنفذوها من إنشاء قاضيهم أبي المطرف بن عميرة سنة ثلاث وأربعين وستمائة. وضمن أبو يحيى بن عبد الحق حمايتهم خلال ما يأتيهم أمر السلطان من تونس ومدده. وبلغ الخبر إلى السعيد فأرھف حده واعتزم على النهوض إليهم فخامهم الرعب، وراجعوا طاعته وأوفدوا صلحاءهم وعلماءهم في الإقالة واغتفار الجريرة، فتقبل ذلك إلى أن كان من حركته بعد ذلك ومهلكه ما هو معروف.

الخبر عن مهلك الأمير أبي يحيى زكريا ولي العهد بمكان إمارته من بجاية وتصيير العهد إلى أخيه محمد:

كان الأمير أبو زكريا قد عقد لإبنه أبي يحيى زكريا على ثغر بجاية قاعدة ملك بني حماد، وجعل إليه النظر في سائر أعمالها من الجزائر وقسنطينة وبونة والزاب سنة ثلاث وثلاثين وستمائة كما ذكرناه، فاستقل بذلك، وكان بمكان من الترشيح للخلاف بنفسه وجلاله، وانتظامه في سلك أهل العلم والدين وإيناس العدل. فولاه الأمير أبو زكريا عهده سنة ثمان وثلاثين وستمائة، وأحضر الملاء لذلك وأشهدهم في كتابه، وأوعز بذكره في الخطبة على المنابر مع ذكره. وكتب إليه بالوصية التي تداولها الناس من كلامة ونصه:

أعلم سدّدك الله وأرشدك، وهداك لما يرضيه وأسعدك، وجعلك محمود السيرة، مأمون السريرة. إن أول ما يجب على من استرعاه الله في خلقه، وجعله مسؤولاً عن رعيته في جل أمرهم ودقه، أن يقدم رضى الله عز وجل في كل أمر يحاوله، وأن يكل أمره وحوله وقوّته لله، ويكون عمله وسعيه ودّه عن المسلمين، وحره وجهاده للمؤمنين، بعد التوكل عليه، والبراءة من الحول والقوة إليه. ومتى فاجأك أمر مقلق، أو ورد عليك نيا مرهق، فريّض لبك، وسكن جأشك، وارع عواقب أمر تأتيه، وحاوله قبل أن ترد عليه وتغشيه. ولا تقدم إقدام الجاهل، ولا تحجم إحام الأخرق المتكاسل. وأعلم أن الأمر إذا ضاق مجاله، وقصر عن مقاومته رجاله، فمفتاحه الصبر والحزامة والأخذ مع عقلاء لجيش ورؤسائهم، وذي التجارب من نبهائهم. ثم الإقدام عليه، والتوكل على الله فيما لديه، والإحسان لكبير جيشك وصغيره الكثير على قدره، والصغير على قدره. ولا تلحق الحقير بالكبير فتجري الحقير على نفسك، وتغلطه في نفسه وتفسد نية الكبير وتؤثره عليك، فيكون إحسانك إليه مفسدة في كلا الوجهين، ويضيع إحسانك وتشتت نفوس من معك.

واتخذ كبيرهم أبا وصغيرهم إبناً، وأخفص لهم جناح الذل من الرحمة، وشاورهم في الأمر، فإذا عزمت فتوكل على الله، إن الله يحب المتوكلين. واتخذ نفسك صغيرة، وذاتك حقيرة، وحقر أمورك، ولا تستمع أقوال الغالطين المغلطين، بأنك

أعظم الناس قدراً، وأكثرهم بذلاً، وأحسنهم سيرة وأجملهم صبراً، فذاك غرور وبهتان وزور.

واعلم أنّ من تواضع لله رفعه الله. وعليك بتفقد أحوال رعبتك والبحث عن عمالهم والسؤال عن سير قضاتهم فيهم، ولا تنم عن مصالحتهم، ولا تسامح أحداً فيهم. ومهما دعيت لكشف ملامّة فاكشفها عنهم، ولا تراع فيهم كبيراً ولا صغيراً إذا عدل عن الحق. ولا تراع في فاجر ولا متصرف إلا ولا ذمّة، ولا تقتصر على شخص واحد في رفع مسائل الرعيّة والمتظلمين. ولا تقف عند مراده في أحوالهم.

واتخذ لنفسك ثقة صادقين مصدقين، لهم في جانب الله أوفر نصيب، وفي رفع مسائل خلقه إليك أسرع مجيب. وليكن سؤالك لهم أفذاذ، فإنك متى اقتصرت على شخص واحد في نقله ونصحه، حمله الهوى على الميل، ودعته الحميّة إلى تجنب الحق، وترك قول الصدق. وإذا رفع إليك أحد مظلمة، وأنت على طريق، فادعه إليك وسله حتى يوضح قصته لك. وجاوبه جواب مشفق مصمغ إلى قوله، مصيخ إلى نازلته ونقله، ففي إصاحتك له وحنوّك عليه أكبر تأنيس، وللسياسة والرياسة في نفوس الخاصّة والعامة، والجمهور أعظم تأسيس.

وأعلم أن دماء المسلمين وأموالهم حرام على كل مؤمن بالله واليوم الآخر إلا في حق أوجبه الكتاب والسنة، وعضدته أقاويل الشرعية والحجة، أو في مفسد عاثت في طرق المسلمين وأموالهم جار على غيه في فساد صلاحهم وأحوالهم، فليس إلا السيف فإن أثره عفاء ووقعه لداء الأدمغة الفاسدة دواء، ولا تقل عثرة حسود على النعم، عاجز عن السعي، فإن إقالته تحمله على القول، والقول يحمله على الفعل، ووبال عمله عائد عليك. فاحسم داءه قبل انتشاره، وتدارك أفره قبل إظهاره، واجعل الموت نصب عينيك، ولا تغتر بالدنيا وإن كانت في يدك. لا تنقلب إلى ربك إلا بما قدمته من عمل صالح ومتجر في مرضاته رابح.

وأعلم أن الإيثار أربح المكاسب وأنجح المطالب، والقناعة مال لا ينفد. وقد قال

بعض المفسرين في قوله عز من قائل: (وتركنا عليه في الآخرين) إنه النبا الحسن في الدنيا على ما خلد فيها من الأعمال المشكورة، والفعلات الصالحة المذكورة.

فليكفك من دنياك ثوب تلبسه وفرس تذب به عن عباده. وأرجو بك متى جعلت وصيتي هذه نصيب عينيك، لم تعدم من ربك فتحاً يبسره على يدك، وتأييداً ملازماً لا يبرح عنك إلا إليك، بمن الله وحوله وطوله. والله يجعلك ممن سمع فوعى، ولبى داعي الرشد إذا دعا، إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

تمت الوصية المباركة، فعظم ترشيح الأمير أبي يحيى لذلك، وعلا في الدولة كعبه، وقوي عند الكافة تأميله، وهو بحالة من النظر في العلم والجنوح للدين، إلى أن هلك سنة ست وأربعين وستمائة، فأسى له السلطان، واحتفل الشعراء في ربائه وتأيينه، فكانوا يثيرون بذلك شجوا السلطان، ويبعثون حزنه، وعقد العهد من بعده لأخيه الأمير أبي عبد الله محمد، بحضور الملاء، وإيداع الخاصة كتابهم بذلك في السجل، إلى أن كان من خلافته ما نذكره بعد.

الخبر عن مهلك السلطان أبي زكريا وما كان عقبه من الأحداث:

كان السلطان أبو زكريا قد خرج من تونس إلى جهة قسنطينة للإشراف على أحوالها، ووصل إلى باغاية فعرض العساكر بها، ووافته هنالك الذواودة، وشيخهم موسى بن محمد. وكان منه اضطراب في الطاعة فاستقام. وأصاب السلطان هنالك المرض فرجع إلى قسنطينة. ثم أبل من مرضه، ووصل منها إلى بونة، فراجع المرض. ولما نزل بظاهر بونة اشتد به مرضه. وهلك لسبع بقين من جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وستمائة لإثنتين وعشرين سنة من ولايته، ودفن بجامع بونة. ثم نقل شلوه بعد ذلك إلى قسنطينة سنة ست وستين وستمائة وستمائة بين يدي حصار النصارى تونس. وبويع إثر مهلكة ابنه ولي عهده أبو عبد الله محمد كما نذكره. وطار خبر مهلكه في الافاق، فانتقض كثير من أهل القاصية، ونبذوا الدعوة الحفصية، وعطل ابن الأحمر منابره من الدعوة الحفصية. وتمسك بها يغمراسن بن زيان صاحب المغرب الأوسط، فلم

يزالوا عليها حيناً من الدهر، إلى أن انقطعت في حصار تلمسان كما نذكره. ولما بلغ الخبر بمهلكه إلى سبتة، وكان بها أبو يحيى ابن الشهيد من قبل الأمير أبي زكريا كما نذكره، وأبو عمرو بن أبي خالد، والقائد شفاف، فثارت العامة وقتل ابن أبي خالد وشفاف، وطردوا ابن الشهيد فلحق بتونس. وتولى كبر هذه الثورة حجبون الرنداحي بمداخلة أبي القاسم العزفي.

واتفق الملاء على ولاية العزفي، وحوّلوا الدعوة للمرتضى، وذلك سنة سبع وأربعين وستمائة. وتبعهم أهل طنجة في الدعوة، واستبد بها ابن الأمير، وهو يوسف بن محمد بن عبد الله بن أحمد الهمداني، كان والياً عليها من قبل أبي علي بن خلاص. فلما صار الأمر للعزفي والقائد حجبون الرنداحي، خالفهم هو إلى الدعوة الحفصية، واستبد عليهم. ثم خطب للعباسي وأشرك نفسه معه في الدعاء، إلى أن قتله بنو مَرين غدراً كما نذكره، وانتقل بنوه إلى تونس ومعهم صهرهم القاضي أبو الغنم عبد الرحمن بن يعقوب من جالية شاطبة، انتقل هو وقومه إلى طنجة أيام الجلاء، فنزلوا بها وأصهر إليهم بنو الأمير، وارتحلوا معهم إلى تونس. وعرف دين القاضي أبي القاسم وفضله ومعرفته بالأحكام والوثائق، واستعمل في خطة القضاء بالحضرة أيام السلطان، وكان له في ذكر.

ولما بلغ الخبر بمهلك الأمير أبي زكريا إلى صقلية أيضاً، وكان المسلمون بها في مدينة بلغ قد عقد لهم السلطان مع صاحب الجزيرة على الإشراف في البلد والضاحية، فتساكنوا حتى إذا بلغهم مهلك السلطان بادر النصارى إلى العيث فيهم فلجوا إلى الحصون والأوعار، ونصبوا عليهم ثائراً من بني عبس، وحاصروهم طاغية صقلية بمعقلهم من الجبل. وأحاط بهم حتى استنزلهم. وأجازهم البحر إلى عدوته، وأنزلهم بوجاره من عمائرهم. ثم تعدى إلى جزيرة مالطة فأخرج المسلمين الذين كانوا بها، وألحقهم بإخوانهم. واستولى الطاغية على صقلية وجزائرها. ومحا منها كلمة الإسلام بكلمة كفره، والله غالب على أمره.

الخبر عن بيعة السلطان أبي عبد الله المستنصر وما كان في أيامه من الحوادث :

لما هلك الأمير أبو زكريا بظاهر بونة سنة سبع وأربعين وستمائة كما قدمناه اجتمع الناس على إبنه الأمير أبي عبد الله، وأخذ له البيعة عمّه محمد اللحياني على الخاصة وسائر أهل المعسكر، وارتحل إلى تونس فدخل الحضرة ثالث رجب من السنة، فجدد بيعته يوم وصوله وتلقّب المستنصر بالله. ثم جدّد البيعة بعد حين، واختار لوضع علامته: الحمد لله، والشكر لله وقام باعباء ملكه، وتقبّض على خاصة أبيه الخصي كافور، كان قهرمان داره، فأشخصه إلى المهديّة، وأوعز إلى الجهات بأخذ البيعة على أهل العمالات فترادفت من كل جانب. واستوزر أبو عبد الله بن أبي مهدي، واستعمل على القضاء أبا زيد التوزري وكان يعلم ولد عمّه محمد اللحياني النائر عليه كما نذكره والله تعالى أعلم.

الخبر عن ثورة ابن عمه محمد اللحياني ومقتله ومقتل أبيه:

كان للأمير أبي زكريا من الإخوة 'إثنان: محمد وكان أسنّ منه ويعرف باللحياني لطول لحيته، والآخر أبو إبراهيم، وكان بينهم من المخالصة والمصافاة ما لا يعبر عنه. ولما هلك الأمير أبو زكريا، وقام بالأمر إبنه أبو عبد الله المستنصر، واستوزر محمد بن أبي مهدي الهنتاتي، وكان عظيماً في قومه، فأمل أن يستبد عليه لمكان صغره، إذ كان في سن العشرين ونحوها. واستصعب عليه حجر السلطان بما كان له من الموالي العلوجيين، والصنائع من بيوت الأندلس. فقد كان أبوه اصطنع منهم رجالاً، ورنب جنداص كثروا الموحدين وزاحموهم في مراكزهم من الدولة. فداخل ابن أبي مهدي أخوي السلطان، وبعث عندهما الأسف على ما فاتهما من الأمر، فلم يجد عندهما ما

أمل من ذلك. فرجع إلى ابن محمد اللحياني، فأجابه إلى ذلك. وبايعه ابن أبي مهدي سرّاً، ووعدّه المظاهرة. ونمي الخبر بذلك إلى السلطان من عمّه محمد اللحياني وحذره من غائلة ابنه، وأبلغه ذلك أيضاً القاضي أبو زيد التوزري منتصِحاً.

وباكر ابن أبي مهدي مقعده للوزارة بباب السلطان لعشرين من جمادى سنة ثمان وأربعين وستمائة، وتقبض على الوزير أبي زيد بن جامع. وخرج ومشىخة الموحدين معه، فبايعوا لابن محمد اللحياني بداره، واستركب السلطان أولياءه. وعقد للعاقد ظافر على حربهم فخرج في الجند والأولياء، ولقي الموحدين بالمصلّى خارج البلد، ففض جمعهم، وقتل ابن أبي مهدي وابن وازكلدن وسار ظافر مولى السلطان إلى دار اللحياني عمّ السلطان فقتله وابنه صاحب البيعة، وحمل رؤوسهما إلى السلطان. وقتل في طريقه أخاه أبا إبراهيم وابنه، وانتهب منازل الموحدين وخربت. ثم سكنت الهيعة وهدأت الثائرة، وعطف السلطان على الجند والأولياء وجهل الاصطناع، فأدر أرزاقهم ووصل تفقدهم. وأعاد عبد الله بن أبي الحسين إلى مكانه بعد أن كان هجر أول الدولة، وتزحزح لابن أبي مهدي عن رتبته، وتضاءل لاستطالته، فرجع إلى حاله واستقامت الأمور على ذلك. ثم سعى عند السلطان بمولاه الظافر، وقبحوا عنده ما أتاه من الأفتيات في قتل عميه من غير جرم. ونذر بذلك فخشي البادرة ولحق بالدواودة، وكان المتولي لكبر هذه السعاية هلال مولاه، فقعد له مكانه واستنفر ظافر في جوار العرب طريداً، إلى أن كان من أمره ما كان.

الخبر عن الآثار التي أظهرها السلطان في أيامه:

فمنها شروعه في اختطاط المصانع الملوكية، وأولها المصيد بناحية بنزرت. اتخذها للصيد سنة خمسين وستمائة، فأدار سياجاً على بسيط من الأرض قد خرج نطاقه عن التحديد، بحيث لا يراعى فيه سرب الوحش، فإذا ركب للصيد تخطى ذلك السياج إلى قوره في لمة من مواليه المتخصين وأصحاب بيزرته، بما معهم من

الجوارح بزاة وصقوراً وكلاباً سلوقية وفهوداً، فيرسلونها على الوحش في تلك القوراء، وقد وثقوا باعتراض البناء لها من أمام فيقضي وطراً من ذلك القنيص سائر يومه، فكان ذلك من أفخم ما عمل في مثلها. ثم وصل ما بين قصوره ورياض رأس الطائبة بحائطين ممتدّين يجوزان عرض العشرة أذرع أو نحوها طريقاً سالكاً ما بينهما، وعلى ارتفاع عشرة أذرع يحتجب به الحرم في خروجهنّ إلى تلك البساتين عن ارتفاع العيون عليهن، فكان ذلك مصنعاً فخماً وأثراً على أيام الدولة خالداً.

ثم بني بعد ذلك الصرح العالي بفناء داره ويعرف بقبة أساراك. وأساراك باللسان المصمودي هو القوراء الفسيحة. وهذا الصرح هو إيوان مرتفع السمك متباعد الأقطار متسع الأرجاء يشرع منه إلى الغرب، وجانبه ثلاثة أبواب لكل باب منها مصرعان من خشب مؤلف الصنعة ينوء كل مصرع منها في فتحة وغلقه بالعصبة اولي القوة. ويفضي بابها الأعظم المقابل لسمت الغرب إلى معارج قد نصت للظهور عليها عريضة ما بين الجوف إلى القبلة بعرض الإيوان، يناهز عددها الخمسين أو نحوها، ويفضي البابان عن جانبه إلى طريقين ينتهيان إلى حائط القوراء. ثم ينعطفان إلى ساحة القوراء يجلس السلطان فيها على أريكته مقابل الداخل أيام العرض والفود ومشاهد الأعياد، فجاءت من أضخم الأواوين وأحفل المصانع التي لشهد بأبهة الملك وجمالة الدولة.

واتخذ أيضاً بخارج حضرته البستان الطائر الذكر المعروف بأبي فهر، يشتمل على جناتٍ وغير معروشات، اغترس فيها من شجره كل فاكهة من أصناف التين والزيتون والرمان والنخيل والأعناب، وسائر الفواكه وأصناف الشجر. ونضد كل صنف منها في دوحة حتى لقد اغترس من السدر والطلح والشجر البري، وسمّى دوح هذه بالشعراء واتخذ وسطها البساتين والرياض بالمصانع والجوائز وشجر النور والنزه من الليم والبنارنج والسرور والريحان، وشجر الياسمين والخيري والنيلوفر وأمثاله. وجعل وسط هذه الرياض روضاً فسيح الساحة، وصنع فيه للماء حائزاً من عداد البحور، جلب إليه الماء في القناة القديمة، كانت ما بين عيون زغوان

وقرطاجنة تسلك بطن الأرض في أماكن، وتركب البناء العاديّ ذا الهياكل الماثلة والقسي القائمة على الأرجل الضخمة في أخرى، فعطف هذه القناة من أقرب السماوات إلى هذا البستان. وأمطاها حائطاً وصل ما بينهما حتى ينبعث من فوهة عظيمة إلى جب عميق المهوى، زصيف البناء متباعد الأقطار مربع القناة مجلل بالكلس، إلى أن يقمعه الماء فيرسله في قناة أخرى قريبة الغاية، فتنبعث في الصهرج إلى أن يفهق حوضه، وتضطرب أمواجه تترفه الحظايا عن السعي بشاطئه لبعده مداه فيركب في الجواري المنشئات ثبجه فيتبارى بهنّ تباري الفتح، ومثلت بطرفي هذا الصهرج قبتان متقابلتان كبيراً وصغراً على أعمدة المرمر، مشيدة جوانبها بالرخام المنجّد، ورفعت سقفها من الخشب المفدر بالصنائع المحكّمة والأشكال المنمّقة، إلى ما اشتملت عليه هذه الرياض من المقاصير والأواوين والحوائز واليقصور غرفاً من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار، وتأنق في مبانيه هذه واستبلغ وعدل عن مصانع سلفه ورياضهم إلى متنزهاته مى هذه، فبلغ فيها الغاية في الاحتفال وطار لها ذكر في الآفاق.

الخبر عن فرار أبي إسحاق وبيعة رياح له وما قارن

ذلك من الأحداث:

كان الأمير أبو إسحاق في إيالة أخيه المستنصر، وكان يعاني من خلقه وملكته عليه شدة، وكان السلطان يخافه على أمره وخرج سنة إحدى وخمسين وستمائة وستمائة لبعض الوجوه السلطانية، ففرّ الأمير أبو إسحاق من معسكره، ولحق بالدواودة من رياح، فبايعوه بروايا من نواحي نقاوس، واجتمعوا على أمره. وبايع له ظافر مولى أبيه النازع إليهم واعتقد منه الذمّة والرتبة، وقصدوا بسكرة وحاصروها، ونادى بشعار طاعتهم فضل بن علي بن الحسن بن مزني من مشيختها. وائتمر به الملاً ليقتلوه، ففر إليه وصار في جملته. ثم بايع له أهل بسكرة ودخلوا في طاعته. ثم ارتحلوا إلى قابس فنازلوها، واجتمعت عليه الأعراب من كل أوب. وأهم السلطان شأنه، وتقبض

على ولده فحبسهم بالقصبة جميعاً. ووكل بهم من يحوطهم وألطف ابن أبي الحسين الحيلة في فساد ما بين الأمير أبي إسحاق ومولاه ظافر، يتحذير ألقاه إلى أخته بالحضرة تنصحا، فبعثت به إلى أخيها، فتنكر لظافر وفارقه، وسار إلى المغرب. ثم لحق بالأندلس، وافترق جموع الأمير أبي إسحاق فلحق بتلمسان، وأجاز منها إلى الأندلس. ونزل على السلطان محمد بن الأحمر فرعى له عهد أبيه، وأسنى له الجراية. وشهد هنالك الوقائع، وأبلى في الجهاد. ولم يزل السلطان المستنصر يتاحف ابن الأحمر وبهاديه، ويوفد عليه مشيخة الموحدين مصانعة في شأن أخيه واستجلاءً لحاله، إلى أن هلك. وكان من ولاية أخيه أبي إسحاق ما نذكر. ولحين مهلكه أجاز ظافر من الأندلس إلى بجاية. وأوفد ولده علي الوثائق مستعتباً وراغباص في السبيل إلى الحج. وقلق المستولي على الدولة بمكانه، وراسل شيخ الموحدين أبا هلال عياد بن محمد الهنتاتي صاحب بجاية في اغتياله عن قصده، فذهب دمه هدرًا وبقي ولده عند بني توجين حتى جاءوا في جملة السلطان أبي إسحاق، وييد الله تصاريح الأمور.

الخبر عن بني النعمان ونكبتهم والخروج أثرها إلي

الزاب:

كان بنو النعمان هؤلاء من مشيخة هنتاتة ورؤسائهم، وكان لهم في دولة الأمير أبي زكريا ظهور ومكان، وخلصت ولاية قسنطينة لهم يستعملون عليها من قرابتهم. واتصل لهم ذلك أول دولة المستنصر، وكان كبيرهم أبو علي وتلوه ميمون وعبد الواحد، وكان لهم في مداخلة اللحياني أثر. فلما استوسق للسلطان أمره، وتمهدت دولته نكبهم وتقبض عليهم سنة إحدى وخمسين وستمائة وستمئة، فأشخص أبا علي إلى الإسكندرية، وقتل ميمون وانقرض أمرهم. وظهر أثر ذلك بالزاب خارج تسمى بأبي حمارة، فخرج السلطان من تونس وقصده بالزاب، فأوقع به وبمجموعه وتقبض عليه، وسيق إلى السلطان فقتله، وبعث برأسه إلى تونس فنصب

بها. وقفل السلطان إلى مقره فنزل بها، وسخط وجوهاً من سليم: من مرداس ودباب، كان فيهم رحاب بن محمود وابنه، فاعتقلهم وأشخصهم إلى المهديّة فأودعهم بمطبخها ورجع إلى تونس ظافراً غانماً.

الخبر عن دعوة مكة ودخول أهلها في الدعوة الحفصية:

كان صاحب مكة ومتوّلي أمرها من سادة الخلق وشرفائهم ولد فاطمة، ثم من ولد ابنها الحسن صلوات الله عليهم أجمعين، أبو نمي وأخوه إدريس، وكانوا قائمين بالدعوة العباسية منذ حولها إليهم بمصر والشام والحجاز صلاح الدين يوسف بن أيوب الكردي، وأمر الموسم وولايته راجعة إليه، وإلى بنيه ومواليه من بعده إلى هذا العهد. وجرت بينهم وبين الشريف صاحب مكة مغاضبة وافقها استيلاء الططر على بغداد، ومحوهم رسم الخلافة بها، وظهور الدعوة الحفصية بأفريقية، وتأميل أهل الافاق فيها وامتداد الأيدي إليها بالطاعة. وكان أبو محمد بن سبعين الصوفي نزيلاً بمكة، بعد أن رحل من بلده مرسية إلى تونس، وكان حافظاً للعلوم الشرعية والعقلية، وسالكا مرتاضاً بزعمه على طريقة الصوفية. ويتكلم بمذاهب غريبة منها، ويقول برأي الوحدة كما ذكرناه في ذكر المتصوفة الغلاة، ويزعم بالتصوف في الأكوان على الجملة، فأرهب في عقيدته، ورمي بالكفر أو الفسق في كلماته، وأعلن بالنكير عليه والمطالبة له شيخ المتكلمين بأشبيلية ثم بتونس أبو بكر بن خليل السكوني، فتنمّر له المشيخة من أهل الفتيا وحملة السنّة وسخطوا حالته.

وخشي أن تأسره البيّات فلحق بالمشرق ونزل مكة، وتذمّم بجوار الحرم الأمين، ووصل يده بالشريف صاحبها. فلما أجمع الشريف أمره على البيعة للمستنصر صاحب أفريقية، داخله في ذلك عبد الحق بن سبعين وحرّضه عليه، وأملى رسالة بيعتهم، وكتبها بخطه تنويهاً بذكره عند السلطان والكافة، وتأميلاً للكرة ونصفاً:

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على الأسوة المختار سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً. {إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً، وينصرك الله نصراً

عزيراً، هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانهم لله جنود السماوات والأرض، وكان الله عليمًا حكيمًا.

هذا النوع من الفتح أعني المبين هو من كل الجهات داخل الذهن وخارجه، وهو الذي خصت به مكة، وهو أعظم فتح نذر في أيام الدهر والزمان الفرد منه خير من أيام الشهر، وبه تتم النعمة، ويستقيم صراط الهداية، وتحفظ النهاية، وتغفر ذنوب البداية، ويحصل النصر العزيز، ونور السكينة، وتتمكن قواعد مكة والمدينة. وكلمة الله عاملة في الموجودات بحسب قسمة الزمان. ثم لا يقال إنها متوقفة على شيء، ولا في مكان دون مكان.

وهذا الفتح قد كان بالقصد الأول والقدر الأكمل، للمتبوع الذي أفاد الكمال الثاني كالسبع المثاني، فإنه هو الأسوة ، وكل نعمة تظهر على سعيد ترجع إليه مثل التي ظهرت على خليفته وعلى يديه. وإن كانت نعمة مولده ، ورسالته تقتضي ختم الأنبياء بهذا القرن الذي نحن فيه، وإمامنا فيه هو ختم الأولياء. فمن فتح عليه بفتح مكة تمت له النعمة، ورفعت له الدرجة، وضفت عليه الرحمة. ومن وصل سلطانه إليها فقد هدي الرشيد وسار على صراطه، ورجح ميزان ترجيحه على أقرانه وإرهاطه. ومن حرم هذا فقد حرم من ذلك، والأمر هكذا.

وسنة الله كذلك، وصفى الله على رسوله الذي طلع المجد من مدينته بعد ما أطلعه من بلده، ورضي الله عن خليفته المنتخب من عنصر خليفة عمر صاحب نبيه، ثم من عمر صاحبه ووليه والحمد لله على نعمه.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيد ولد آدم محمد. {حم، والكتاب المبين، إنا أنزلناه في ليلة مباركة، إنا كنا منذرين. فيها يفرق كل أمر حكيم. أمراً من عندنا، إنا كنا مرسلين. رحمة من ربك، إنه هو السميع العليم}. قد صح أن هذه الليلة فيها تنزل الآيات وترتقب البيذانات، وفيها تخصيص القضايا الممكنة وأحكام الأكوان ويفرق الأمر، ويفسر الملك الموكل بقبض الأرواح بحمل الآجال في الأزمان، وفيها تقرر خطة الإمامة والملك، وتقيض الإمامه بالهلك، وهي في القول الأظهر في أفضل الشهور، وفي السابع والعشرين منه كما ورد في الحديث المشهور. ثم هي في أم القرى وفي حرمها تقدر بقدر زائد، ويعم فضلها إلا للحائد عن الفائذ،

وإنما قلت هذا ورسمته ليعلم من وقف على الخطبة التي اقتضبتها، والليلة التي فيها قرأتها، أنها من أفضل المطالب التي قصدت، وإن القرائن التي اجتمعت فيها ولها، زادت على الفضائل التي لأجلها رصدت، وأيضاً تأخر فيها مجد إمام عن إمام، وبعد مجد إمامه وراء إمام هو وراء الامام، ورحمت فيها نفس خليفة عبرت وتلقب وعظمت فيها ذات خليفة تحي التي سفت، فهذه نعمة بركة ينبغي أن يقرر حدها ويتحقق مجدها، ولا يقدر قدرها فإنها ليلة قدر، ليلة قدرها. والحمد لله حمداً واصلًا بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على واحد الله في عنايته سيدنا محمد (طسم، تلك آيات الكتاب المبين) إلى قوله: (منهم ما كانوا يحذرون) الحق الشاهد لنفسه المتفق من جميع جهاته، وفي سنة الله التي لا تحول ولا تبدل والمتعارف من عاداته التي ربطها بحكمته التي تعدل ولا تعدل، إن لكل هداية نبوية ضلالة فرعونية، وكذا الحال في الأولياء، ومع كل مصيبة فرج، ولا ينعكس الأمر في الأتقياء. ولكل ظلم ظالم متجبر قهر قاهر متكبر، وعند ظهور ظفر المبطل يظهر قصد المحق المفضل. وفي عقب كل فترة أو فيها كلمة قائم بحق يغلب لا يغلب، وفي كل دور أو قرن أمانة تطلب بشخصها ولا تطلب، وكواكب الكفر إذا طلعت على أفق الإيمان فيه نكب أفلة، وكلمة الله إذا عورضت تكرر معارضتها قافلة. وإنما ذكرت ذلك بعد الذكر المحفوظ ليتذكر بالآيات الظاهرة إلى الآيات القاهرة. وليعلم كل مؤمن أن كلمة الله متصلة الاستصحاب والسبب، وعاملة في الأشياء مع الأزمان والحقب، وأن رجال الملة الحنفية أعلى المنازل والرتب. ولذلك يقول في نوع فرعون الأذل، ونوع موسى الأجل: أشخاصاً متعددة، وأكوانها متحدة، والله غالب على أمره. وقد قيل إن الملة الحنفية المضربة تنصرها السيرة العمرية المحمدية المستنصرية.

ولعل الذي أقام الدين وأطلعه من المشرق وأتلفه منه، يجيره من المغرب ولا ينقله عنه، فينبغي لمن أمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وبما يجب كما يجب أن لا يتغير قصده ولا يتوقف عند سماع المهلكات حمده، قد قيدت إقدام قوم بشرك الشرك، وحملهم الضجر إلى الهلك بطاعة الترك وكع كيد الكنود هلك كنعان وكل بصر

بصيرته، ولبس لهم ثوب الذل بالعرض، وجعل مصيبة الدين تفتته مع جوده لسلطان السنة والفرض. وأما هامان المرثدين فليس هم بالمؤمنين، وعلا فرعون الشر في الأرض، والله يمن على المستضعفين في الأرض بنصر من عنده، وبهلك المفسدين بجند من رفده. وينبغي أو يجب أن نضرب عن ذكر كائنة مدينة السلام، فإنها تزلزل الطبع وتحمل الروح إلى ساحة الشام أو تفرع في صلاة كسوف شمس سرورها إلى التسليم بالاستسلام ونكبر أربع تكبيرات على الإنس ويوح بعد ذلك وعد وسلام، وينتظر قيامه بقيام أمر محيي الدين والإسلام، والحمد لله على كل حال.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على الذي أعجزت خصاله العدّ والحدّ،

مسلم والطبقة قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : << يكون في آخر أمتي خليفة يحثي المال حثياً لا يعده عداً >> . وقال صلى الله عليه وسلم : << يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعد >> زاد أبو العباس الهمداني، وأشار بيده إلى المغرب. وذكر بهاء الدين التبريزي في ملحمة التي زعم أنه لا يثبت فيها من الأخبار إلا ما صحته روايته، ولا يذكر من الأحكام المنسوبة إلى الصنائع العمليّة إلا ما أبرزته درايته. ولا يعتبر من الأعلام الدينيّة إلى ما أدركته هدايته. قال في الترجمة الأولى: إذا خرجت نار الحجاز يقتل خليفة بغداد، ويستقيم ملك المغرب وتبسط كلمته في الأقطار، ويخطب له على منابر خلفاء بني العباس ، ويكثر الدر بالمعبر من بلاد الهند.

ذكرت هذا ليعلم المقام أيده الله أنه هو المشار إليه، وأنه الذي يعول في إصلاح ما فسد بحول الله عليه. ومن تأمل قوله صلى الله عليه وسلم : "يكون في آخر الزمان " الحديث، تبين له ما أردناه وذلك يظهر من وجوه، منها: أن الخليفة المذكور لم يسمع به فيما تقدم، ولا ذكر في الدول الماضية، ولو ذكر لرددنا القول به وأهملناه لأجل تقييده بآخر الزمان. والثاني: أن آخر الزمان الذي يراد به ظهور الشروط المتوسطة، وأكثر العلامات المنذرة بالساعة هو هذا بعينه. الثالث :لا خليفة لأهل الملة في وقتنا هذا غير الذي قصدناه.

وهذه أقطار الملة منحصرة ومعلومة لنا من كل الجهات، والذي يشاركه في الإسم ويقاسمه في إطلاقه فقط لا يصدق عليه، إذ هو أضعف من ذرة في كرة، ومن نملة في رملة. وأفقر من قصد طالب السراب، ويده مع هذا أيبس من التراب فصح

بالي جر والتقسيم، وتتصفح الموجودات والأزمان والدول والمراتب والنعوت أنه هو لا شريك له فيها، والمصحح لذلك كله، والذي يصدق وينطبق عليه مدلول الحديث كرمه الذي يعجز عنه الحد، ولا يتوقف فيه العد. وهذا خليفة الملة كذلك، وهذه دلائله هي أوضح من نار على علم. وهذه خصاله شاهدة له بفضائل السيف والقلم، وهذه خزائنه تغلب الطالب وتعجز عن الدافع، وهذه صعوده في صعوده، وهذه متاجر تعويله على الله رابحة وهذه أحواله بالكلية سالحة، وهذه سعائته ناجحة. ثم هذه موازين ترجيحه راجحة، والحمد لله كما يجب.

وما النصر إلا من عند الله وصلى الله على عبده محمد بن عبد الله أنه من بكة وأنه للحق وأنه بسم الله الرحمن الرحيم، وأنه إلى خضر لا تحصر الخصر ويحدر فيها النذر ويحافظ على سنة الرؤوف الرحيم. صفى الله عليه وسلم أما بعد فيهداهم اقتده، الحمد لله الذي أحسن بمقام الإحسان وتمم النعمة، وبين لمن تبين علم البيان، وحكم لمن أحكم الحكمة وسبقت في صفات أفعاله صفة الرحمة وذكر الهداية في كتابه بعد ذكر النعمة، هو الرؤوف بالبرية وهو الرحيم والحفي بالحنفية، وهو القاهر الماضي المشيئة الذي يقبض ويبسط ويمضي المشيئة. شهد له بالكمال الممكن الذي أبرزه وخصّصه وعرفه بالجلال من يسره لذلك وخلصه. هو الذي استعمل عليها من اختاره لإقامة النافلة والفرض، وأعمى من أهلها من توسل له بنية العرض وأعتق العقاب وسر العقاب وأهمل العقاب بطاعة من يستعمر به الربع المعمور، وأنعم على المستضعفين في الأرض بإمام بخر المجد في بحر خصاله يعذب بعض البعض.

سنته محمدية، وسيرته بكرية وسيرته علوية، وسلالته عمرية. فهذه ذرية وأنواع مجد بعضها من بعض، بل هذه خطوط فصل الطول فيها مثل العرض. عرف بالرياسة العالية، ووصف بالنفاسة السالية، وشهد له بذلك الخاص والعام ونزه من النقائص. النزيه النفس ومن نزهه في سلطانه علمه العام. صلى الله على الأسوة الرؤوف بالمؤمنين، سيّدنا محمد الذي أنزل عليه التنزيل، وكتب اسمه في صحيح القصص والنصوص، ونبى الله به وبأئمة أمته الذين شبههم بالبنيان المرصوص،

وعلى آله وصحبه الكرام البررة الذين اصطفاهم وطهرهم، ثم أيدهم فطهروا الأرض من الكفرة الفجرة. وأخرج من ظهورهم ذرياتهم بالدين) طهرهم، ويسر بهم السبيل ثم السبيل يسرهم.

ومنهم الخليفة المستنجد بالله المفضل على الناس، ولكن أكثرهم ورضي الله عنهم وعنه، وضاعف للمحب الثواب الدائم منهم ومنه. وبعد خدمة يتقدم فيها بعد الحمد والتصلية والدعاء للدولة الدالة على قبول الدعوة أصلية، تحية بعضها مكية وكلها ملكوتية، وروضة ريحها حضرة القدس ونشرها يدرك فيه صحبة النفث، روح القدس. وتكبر عن أن تشتبه بالعنبر والند والورد وأزهار الربى والرياض. لأن المفارق للمادة مفارق لغير المفارق لها مفارقة السواد للبياض. ثم هي مع هذا واجبة القصد عذبة الورد، تذكر الذاكر الذكي بعرفها الذكي لمدركات جنة الخلد والنعيم. وفي مثل هذه فليتنافس المتنافسون.

وتدرك النفس النفيسة لذة النعيم لأنها ظاهرة طيبة، وكريمة صبيّة، واقفة على

حضرة الملك والسلطان، ومدار فلك النسك ومستقر الإمامة والجلالة، ومعدل الهداية والدلالة، وأصل الأصالة ودار المتقين، وبيت العدالة وحزب اليقين. وإنسانها الأعظم معلي الموحدين على الملحين وقائم الدين وقيمه، ومقر الإسلام ومقدمه، القائم بالدعوة العامة بعد أبيه إمام المجد والفخر، ثم الأمة الذي إذا عزم أوهم بتخصيص مهمل، اتخذ في خلد ما هو بالفعل مع ما هو بالقوة، وأن يعرض له في طريق إعراضه الممكن العسيري سره سعده وساعده ساعد القوة وإن سمع بالحمد في جهة حده بخاصة خصاله بعد مجد الأبوة وفخر النبوة، لا يذكر معه ولا عنده صعب الأمور إلا بالضد، فإنه مظهر العناية الإلهية، ومرعاة المجد والجد. هو علم العلم ثم هو محل الحلم، إسمه متوحد في مدلوله كالإسم العلم، وعهده لا يتوقف على اللسان ولا على رسوم القلم.

كتب في السماء وسمع به في الكرسي، وكذلك العرش، وما هنا إنما هو مما هنالك فهو الأعلى. وإن كان في الفرش هو شامخ القدر ظاهر الفضل شديد البطش. ثم هو مما ظهر عليه علم أن الشجاعة لم تنتقل من الإنسان إلى الأسد. ولا يقال هذا بحر العلم

فينقل من الطبيعة إلى بحر الخلد، لأن ذلك كله فيه بوجه أكمل وبه وعليه، وفي يديه بنوع أفضل بلغ ذروة النهاية المخصوصة، بالمطالب العالية وحصل في الزمان الفرد ما حصله الفرد في الأيام الخالية. وبلغ في تبليغ حمده بصفاته ما بلغ الأشد عمره ونال غاية الإنسان، ويتعجب منه في القيامة عمره، ويسره أمره طلعت سعوده على مولده، ومطالعه كلمة مجده لأحكام الفلك وطالعه. إن حرر القول فيه وفهم شأنه، قيل هو من فوق الأطلس والمكوكب، وإن قيس سعده بالكمالات الثلاثة كان كالبسيط مع المركب. أي غاية تطلب بعد طاعته، وأي تجارة تنظر مع بضاعته، له الحمد بيده الملك والأمانة، بل له الكل بفضل الله وفيه المقصد والسلامة، لا بل له الفتح المبين وتتميم النعمة والهداية ونور السكينة، وفيه الإمارة والعلامة. منير منكة بإزاء بيت بكة خطب بخطبته، والذي ذهب بالمدينة يطلب فلعله يسعفه في خطبته أفئدة السر تطير إذا سمعت بذكره، والمهندات البتر تلين لباس ساعده. ويقول طباع أربابها بشكره دولة التوحيد، توحدت له إذ هو واحد الأوحى، وسياسة التسديد تحكمت له فهو مديرها الأرشد. ومع هذا كتابته أهملت صيت الصادين، وكورت شمس الفتح، ثم الفتح والصادين.

وكذلك الثلاثة الذين من قبلهم لا نذكر معه الأديب حبيب في رد الإعجاز على

الصدور، فإنه الذي يعتبر في ذلك والذي يصدر عنه هو واقع في الصدور، وأفعل في طباع المهرة وفي نفوس الصدور يتأخر عن شعره شعر الرجلين. وبعده نذكر الطبقة، ثم شعراء نجد، والخبب والجبلي والولد بعده والهدلي، والمؤكد هو تقديمه في المغرب من ذلك. والهدلي علوم الأدب، الخمسة تممها وسادسها وسابعها زاده من عند نفسه. وخليل النحو لو حضر عنده كان خليله في تحصيل نوعه وجنسه، والفارسي تلميذه ثم الآخر بعده والأخفش الكبير ثم الصغير ما ضرب لهم من قبل في مثله بنصيب. وأقام أئمة النحو تنحو نحوه بنحو ينحو نحو نحوه، ثم لا يكون كالمصيب. وكل كوفي بل كل بصري يجب الظهور إذا سمع به اختفى، والمنصف منهم هو الذي بنحوه اكتفى. أقيسة الفقه الثلاثة هذبها وحصلها، وأصوله كما يجب علمها وفضلها. والمسائل الطبولية تكلم على مفصلها ومجملها، وسهل الصعب من مخصّصها ومهملها.

وإن فسر كتاب الله المعجز عجز أرباب البلاغة بإعجاز بعد إعجازه، وإن تعرّض لعوارض ألفاظه أظهر العجب في اختصاره وإيجازه. وإن شرع في شرح قصصه وجدله، وفي تفسير ترغيبه وترهيبه. ومثله يبصر الناظر فيه والمستمع لما لم يسمع وما لم يبصر، فإنه سلك بقدّم كماله وتكميله على قنطرة بعد لم تعبر ويضطر الزعيم به بتحصيله إلى تجديد قنطرة أخرى، وبعد هذا يفتقر في بيانه إليه في الأولى وإلى الله في الأخرى. وإن تكلم عن متشابهه ومحكمه علم الاصطلاح. ثم بيان النوع للخير به وبمحكمه، وكذلك القول على الناسخ والمنسوخ والوعد والوعيد. وإن يشاء طول في مطولاتهم واختصر من مختصراتهم، فيبده الزيادة وضد المزيد، وأما تحرير أمره ونهيه وأسراره ورقائقه، وفواتح سورته وحقائقه. والذي يقال إنه لا من جنس الذي يكتسب والذي هو أعظم من الذي يرد، وإليه الأحوال تنتسب فهو الشارح لها والخبير بها، وإن تأخر. وينوّع في ذلك ويزيد غير الأول وإن تكرر. وأما علوم الحديث وأنواعها السبعة فهو بعلمها، وصناعته بجملتها للعلماء بعلمها. والوارقة والضبط والخط وقفت عليه مهنة غايتها، وحمله الأمر علوم الشريعة كلها عرفها ووعاها ورعاها حق رعايتها. وكل العلوم العقلية والنقلية ورجالها على ذهنه الطاهر من دنس النسيان، والمقامات السننية المستنزلات العلوية أدركها بعد التبيان. فمن أراد أن يمدحه ويعدل عن إطلاق القول فقد اقترف أعظم الذنب. ومن ذكره ولم يتلذذ بذلك فقد جاء بما ينضح حمله الخبب، ونعوت جمالها يمنع عن إدراكها نور المتصل، وحضرة جلاله محفوظة بجدها وجدها وقاطعها المنفصل. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، قل اللهم مالك الملك، الله أعلم حيث يجعل رسالاته.

هذه كلّها. آياته والرابعة: { وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها } فإنها هباته إن حدث المحدث بكرمه يقول، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده، ونصر الله إذا جاء لا يردّه، وفتح من ذا الذي عن السعيد يصدّه، والمؤرخ يتذكر بتذكره الكلمات الهذلي من حيث المطالب، إذ قال وقد سئل عن الإمام علي بن أبي طالب هو الإمام وفيه أربعة وهو واحد حتى في رفع التشبيه وقطع السبب، العلم والحلم والشجاعة وفضل الحسب، يسرّ

بحكمته ويغبط بها متى يتبع جملته، الباحث الحكيم ولا يشعر بشعره إذا تصفح نعوته الشاعر العليم، وينشد طبعه في الحين والوقت والحزة وبخرج الحروف من مخارج الهمزة.

شهدت لقد أوتيت جامعَ قصليه وأتت على علمي بذاك شهيدُ

ولو طلتك في الغيب منك سجيّة لقد قرّ موجودٌ وعَرَّ وُجُودُ

أدام الله له المجد الذي يسلك به على النجدين، وحفظ عليه مقامه الذي لا يحتقر فيه إلا جوهر النقدين، وبسط له في العلم والقدرة، وبارك له في نصيب النصر، وجهّز به العسرة، ورد به على الشرك والفتن الكثرة، وعرفه في كل ما يعتزمه صنعا جميلا، ولطفا خفيا جليلا وكفاه الشر المحض وخير الشرين، كما كشف له عن الخير المحض وعلم السرّين، وأيده بروح منه في السرّ والسريرة، وحفظه في حركاته وسكناته من الصغيرة والكبيرة. وجعل كلمته غالبية للضد والجند، وبلغ صيته الجزائر والبربر، ثم إلى السند والهند. وولد ملكه وسلم فلكه، ورفع على أوج المجد بحده الطويل العريض. وأهبط عدوه من شرف الأعلى إلى الحضيض.

وفتح الله به باب الفتح في المشرق والمغرب بعد فتح الثغور، وشرح بنصره وفتحه أوساط الصدور، وما استنبطته الضمائر من نفثات الصدور وجبر به كسر الظفر، ووصل به ما انقطع من الأسباب. وعصم جنده من ضد الدنف الأنف، وردّهم إلى ردم الأبواب وقدّس كلمته بعد الحرمين في البيت المقدّس، وسلك به مسلك السبل في المقييل والمعرس. وبعد هذا فهذه أدعيتنا، بل هذه أوديتنا، وهذه مسائلنا بل هذه وسائلنا، وهذه تحية حيّاها ذو الفطرة السليمة، وهذه خدمة يفتخر بها طبيعة النفس العليمة. واستنبت فيها الكتاب واستثبت فيها الجواب، والموجب لإصدارها محبة أصلها ثابت وفرعها في العلى وحفز عليها حافزان: شوق قديم، ورعاية الآخرة والأولى، بل الأمر الذي هو في خير الأمور من أوسطها، وإذا نظم في عقد الأسباب الموجبة لهذه الخطابة يكون في وسطها، فإنه يحكي أحكام الشأن والقصة، ويعلم المقام أيده الله الذي حصل له في حرم الله وحرّم نبيه من النصيب والحصة، وفيه ينبغي أن تذهب الألفاظ وتلحظ عيون الأغراض وينفخ المقاصد ويحمل على جواهر

الكمالات كالأعراض، فمن ذلك ذكر الملة التي كملت وكبرت، والأخرى التي كانت ثم غمرت وصغرت. والمنبر الذي صعد خطب خطبته على الخطيب، وعرج إلى سماء السمو وهو على درجه، والآخر الذي درج عنه خطيبه وضاق صدره الأمر حرجه، وقرئت سورة الإمام بحرف المستنجد المستبصر، لا بحرف المستعصم بن المستنصر.

بسط القول وأطلق ترجمة عبد الله بعد ما قبضه الذي أمات وأحيا، وقبض على مقامه ودفع للإمام محمد بن يحيى، وكان ذلك في يوم وصول الخبر بمصيبة الاختبار، ثم في ليلة الآيات والاعتبار. ومن ذلك أيضاً بنعمة الحمد والدعاء الظاهر القول والمقبول في الحرم الشريف، وانقياد الذي ظهر على طائفة الحق والسيد الشريف. ومن ذلك صعود علم الأعلام على جبل معظم الحجّ ومقرّ وفوق الحاج، ووقف به المتكلم في مقام من كانت له سقاية الحاج، وذكر كما يجب بما يجب في موقف الإمام مالك، وعرف هنالك أنه الإمام والمالك لكل مالك. وتعزّفت نكرة دعوة التوحيد بتخصيص خصوصية المخصوص بعرفة، وتعارف بها من تعارف معه هناك ونعم التعارف والمعرفة.

ثم ذكر عند المشعر الحرام وفي جهات حدود حرم المسجد الحرام، وعظم اسمه بعد ذكر الله وذكر الوالدين، وطلع الذاكر بالتركيب إلى الجدّين الساكنين في الخلد والخالدين. فلما وصل الحجيج إلى عقبة الجمرات، ذكر مع السبع الأولى سبع مرات. وكذلك عند الركوع في مسجد الخيف، وكل كلمات تمجيدته بالكم والكيف، وعند التوجّه من هناك ويوم النفر قرّرت آياته المذكورة في كتاب الجفر. ثم جدد الذكر حول البيت العتيق بالحمد والشكر. فلما وصل العلم بانتقال بيت الملك والسلطان من بغداد في شهر رمضان، أظهر الخفي المكنون فكان ذلك مع التسبيح والقرآن، وكان الخادم في الزمان الأول وفي الذهاب ينتظر الخطفة من نحو عراق والمغرب. والان وجد نفسها من نحو اليمن إقليم الأعراب والعرب.

والذي حمل على هذا كله طاعة كاملة وغبطة عاملة، والله تعالى بفضله يعصمه من كيد المعاند، فإنه في إظهار دعوة التوحيد كالمجاهد والمكابد، ومعاد التحيّة على المقام الأرفع والمقرّ الأنفع، وعلى خدام حضرته العلية، وأرباب دعوته الجليلة وأنواع رحمته تعالى وبركاته. والحمد لله كما يجب وصلى الله على نبيه محمد وعلى آله وسلم.

كتب تجاه الكعبة المعظمة في الجانب الغربي من الحرم الشريف، والحمد لله رب العالمين. ولما وصلت هذه البيعة استحضر لها السلطان الملاً والكافة، وقرئت بمجمعهم وقام خطيبهم القاضي أبو البراء في ذلك المحفل فأسحفر في تعظيمها والإشادة بحسن موقعها، وإظهار رفعة السلطان ودولته بطاعة أهل البيت والحرم ودخولهم في دعوته. ثم جار بالدعاء للسلطان وانفضّ الجمع فكان من الأيام المشهودة في الدولة.

الخبر عن الوفود من بني مَرين والسودان وغيرهم

كان بنو مَرين كما قدّمناه قد تمسّكوا بطاعة الأمير أبي زكريا ودخلوا في الدعوة الحفصية، وحملوا عليها من تحت أيديهم من الرعايا مثل: أهل مكناسة وتازى والقصر، وخاطبوا السلطان بالتمويل والخضوع. ولما هلك السلطان وولي ابنه المستنصر، وقارن ذلك ولاية المرتضى بمراكش. ثم كان بينهم وبين المرتضى من الفتنة والحرب ما ذكرناه ونذكره، فاتصل ذلك بينهم وبعث الأمير أبو يحيى بن عبد الحق بيعة أهل فاس، وأوفد بها مشيخة بني مَرين على السلطان وذلك سنة اثنتين وخمسين وستمئة فكان لها موقع من السلطان والدولة. وقابلهم من الكرامة كل على قدره، وانصرفوا محبورين إلى مرسلهم. ولما هلك أبو يحيى بن عبد الحق، واستقل أخوه يعقوب بالأمر أوفد إليه ثانية رسله وهديته، وطلب الإعانة من السلطان على المرتضى وأمر أهل مراكش على أن يقيموا بها الدعوة له عند فتحها. ولم يزل دأبهم هذا إلى أن كان الفتح.

وفي سنة خمس وخمسين وستمئة وصلت هدية ملك كانم من ملوك السودان، وهو صاحب برنو مواطنه قبلة طرابلس، وكان فيها الزرافة وهو الحيوان الغريب الخلق المنافر الجلى والشيات، فكان لها بتونس مشهد عظيم برز إليها الجفلى من أهل البلد حتى غصّ بها الفضاء، وطال إعجابهم بشكل هذا الحيوان وتباين نعوته، وأخذها من كل حيوان بشبه. وفي سنة ثمان وخمسين وستمئة وصل دون الرنك أخو ملك قشتالة مغاضباً لأخيه، ووفد- على السلطان بتونس فتلّاه من المبرّة والحباء بما يلقي به

كرام القوم وعظماء الملوك، ونزل من دولته بأعزّ مكان. وكان تتابع هذه الوافدات مما شاد بذكر الدولة ورفع من قدرها.

الخبر عن مقتل ابن الأبار وسياقة أوليته

كان هذا الحافظ أبو عبد الله بن الأبار من مشيخة أهل بلنسية، وكان علامة في الحديث ولسان العرب، وبليغاً في الترسيل والشعر. وكتب عن السيد أبي عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن بلنسية، ثم عن ابنه السيد أبي زيد. ثم دخل معه دار الحرب حين نزع إلى دين النصرانية، ورجع عنه قبل أن يأخذ به. ثم كتب عن ابن مردنيش. ولما دلف الطاغية إلى بلنسية ونازلها بعث زيّان بوفده بلنسية وبيعتهم إلى الأمير أبي زكريا، وكان فيهم ابن الأبار هذا الحافظ، فحضر مجلس السلطان وأنشد قصيدته على رويّ السين يستصرخه، فبادر السلطان بإغاثتهم وشحن الأساطيل بالمدد إليهم من المال والأقوات والكسي فوجدهم في هوة الحصار، إلى أن تغلب الطاغية على بلنسية. ورجع ابن الأبار بأهله إلى تونس غبطة بإقبال السلطان عليه فنزل منه بخير مكان، ورشّحه لكتب علامته في صدور رسائله ومكتوباته، فكتبها مدّة. ثم إن السلطان أراد صرفها لأبي العباس الغساني لما كان يحسن كتابتها بالخط المشرقي، وكان أثر عنده من الخط المغربي فسخط ابن الأبار إنفة من إثار غيره عليه، وافتات على السلطان في وضعها في كتاب أمر بإنشائه لقصور الترسيل يومئذ في الحضرة عليه، وإن يبقى مكان العلامة منه لووضعها فجاهر بالردّ ووضعها استبداداً وأنفة، وعوتب على ذلك فاستشاط غضباً ورمى بالقلم وأنشد متمثلاً

واطلّب العزّ في لظى ودّر الدلّ ولو كان في جنان الخلود

فسمى ذلك إلى السلطان فأمر بلزومه بيته، ثم استعتب السلطان بتأليف رفعه إليه عدّ فيه من عوتب من الكتاب، واعتب. وسمّاه أعتاب الكتاب. واستشفع فيه بإبنة المستنصر فغفر السلطان له وأقال عثرته، وأعادته إلى الكتابة. ولما هلك الأمير أبو زكريا رفعه المستنصر إلى حضور مجلسه مع الطبقة الذين كانوا يحضرونه من أهل الأندلس

وأهل تونس، وكان في ابن الأبار أئقَّةً وبأؤ وضيق خلق، فكان يزري على المستنصر في مباحثه ويستقصره في مداركه، فخشن له صدره مع ما كان يسخط به السلطان من تفضيل الأندلس وولايتها عليه.

وكانت لابن أبي الحسين فيه سعاية لحقد قديم، سببه أن ابن الأبار لما قدم في الأسطول من بلنسية نزل بينزرت، وخاطب ابن أبي الحسن بغرض رسالته، ووصف أباه في عنوان مكتوبه بالمرحوم. ونبّه على ذلك فاستضحك وقال: إن أباً لا تعرف حياته من موته لأب خامل. ونميت إلى ابن أبي الحسين فأسرّها في نفسه، ونصب له إلى أن حمل السلطان على إشخاصه من بجاية. ثم رضي عنه واستقدمه ورّجعه إلى مكانه من المجلس. وعاد هو إلى مساءة السلطان بنزعاته إلى أن جرى في بعض الأيام ذكر مولد الوثائق وساءل عنه السلطان فاستبهم، فعدا عليه ابن الأبار بتاريخ الولادة وطالعتها، فاتهم بتوقع المكروه للدولة والتربص بها كما كان أعداؤه يشنّعون عليه، لما كان ينظر في النجوم فتقبّض عليه. وبعث السلطان إلى داره فرفعت إليه كتبه أجمع، وألقى أثناءها فيما زعموا رقعة بأبياتٍ أولها:

طغى بتونس حلف سموه ظلماً خليفة

فاستشاط لها السلطان وأمر بامتحانه ثم بقتله قعصاً بالرمح وسط محرم من سنة ثمان وخمسين وستمئة، ثم أحرق شلوه وسيقت مجلدات كتبه وأوراق سماعه ودواوينه فاحرقت معه.

* (الخبر عن مقتل اللياني وأوليته وتصاريف أحواله) *

أصل هذا الرجل من لُليانة قرية من قرى المهديّة، مضمومة اللام مكسورة الثانية، وكان أبوه عاملاً بالمهديّة، وبها نشأ ابنه أبو العباس . وكان ينتحل القراءة والكتاب حتى حذق في علوم اللسان. وتفقه على أبي زكريّا البرقي. ثم طالع مذاهب الفلاسفة، ثم صار إلى طلب المعاش من الإمارة فولي أعمال الجباية. ثم صدر في ولايته على مال أعطاه وتخلص من نكته، فنهض في الولايات حتى شارك كل عامل

في عمله بما أظهر من كفايته وتنميته للأموال حتى قصر بهم وأدبل منهم.

وكان الكثير منهم متعلّقاً من ابن أبي الحسين رئيس الدولة بدمّة خدمة، فأسفه بذلك وأغرى به بطانة السلطان ومواليه، حتى سعوا به عند السلطان، وأنه يروم الثورة بالمهدية، حتى خشن له باطن السلطان. فدخل عليه ذات يوم أبو العباس الغساني فاستجازه السلطان في قوله: "اليوم يوم المطر" فقال الغساني: "ويوم رفع الضرر" فتنّبهُ السلطان واستزاده فأنشد: "والعام تسعة كمثل عام الجوهري" فكانت إغراء باللياني، فأمر أن يتقبض عليه وعلى عدوه ابن العطار، وكان عاملاً وأمر أبا زيد بن يغمور بامتحانها فعذبهما حتى استصفى أموالهما، والميل في ذلك على اللياني. وكان في أيام امتحانه يباكر موضع عمله. ثم نمي عنه أنه يروم الفرار إلى صقلية، وبوحت بعض من داخله في ذلك فأقر عليه، فدفع إلى هلال كبير الموالي من العلوج فضربه إلى أن قتله، ورمى بشلوه إلى الغوغاء فعبثوا به وقطعوا رأسه، ثم تتبع أقاربه وذووه بالنكال إلى أن استنفدوا.

(الخبر عن انتفاض أبي علي الملياني بمليانة علي يد الأمير أبي حفص)

كان المغرب الأوسط من تلمسان وأعمالها إلى بجاية في طاعة السلطان منذ تغلب أبوه الأمير أبو زكريا عليه، وفتح تلمسان وأطاعه يُغمُراسن وكان بين زناتة بتلك الجهات فتن وحروب شأن القبائل اليعاسيب، وكان مليانة من قسمة مغراوة بني ورسيفان، وكانوا أهل بادية. وتقلص ظل الدولة عن تلك الجهات بعض الشيء. وكان أبو العباس الملياني من مشيخة مليانة صاحب فقه ورواية وسمت ودين، رحل إليه الأعلام وأخذ عنه العلماء، وانتهت إليه رئاسة الشورى ببلده. ونشأ ابنه أبو علي عليه مني الخلال متهاكاً في الرياسة متبعاً غواية الشيبية، فلما رأى تقلص ظل الدولة وفتن مغراوة مع يغمُراسن ومزاحمته لهم، حدّثته نفسه بالاستبداد فخلع طاعة آل أبي حفص ونبذ دعوتهم، وانبرى بها داعياً لنفسه. وبلغ الخبر إلى السلطان فسرح إليه أخاه الأمير أبا حفص، ومعه الأمير أبو زيد بن جامع، وذن الرنك أخو الفنش،

وطبقات الجند. فخرج من تونس سنة تسع وخمسين وستمئة وأغذَّ السير إلى مليانة فنزلها مدة، وشد حصارها حتى اقتحموها غالباً. وفر أبو علي الملياني ولحق بني يعقوب من آل العطاف أحد شعوب زغبة فأجاروه وأجازوه إلى المغرب الأقصى، إلى أن كان من خبره ما نذكره بعد.

ودخل الأمير أبو حفص مليانة وميَّه نواحيها وعقد عليها إلى ابن منديل أمير مغراوة فملكها مقيماً فيها لدعوة السلطان شأن غيرها من عمالات مغراوة. وقفل الأمير أبو حفص إلى تونس، ولقيه بطريقه كتاب السلطان بالعقد له على بجاية وأمارتها، فكره ذلك غبطة بجوار السلطان. وتردَّدت في ذلك رغبته فأديل منها بالشيخ أبي هلال عياد بن سعيد الهنَّاتيِّ، وعقد له على بجاية. ولحق الأمير أبو حفص بالحضرة إلى أن كان من خلافته ما نذكر بعد. وهلك شقيقه أبو بكر ابن الأمير أبي زكريا ثانية مقدمه إلى تونس سنة إحدى وستين وستمئة، فتفجَّع له الخليفة والقرابة والناس وشهد السلطان جنازته، والبقاء لله وحده.

* (الخبر عن فرار أبي القاسم بن أبي زيد ابن الشيخ أبي محمد وخروجه في رباح) *

كان أبو القاسم بن أبي زيد هذا في جملة ابن عمه الخليفة، وتحت جرايته، وأبوه أبو زيد هو القائم بالأمر بعد أبيه الشيخ أبي محمد. ولحق بالمغرب. وجاء أبو القاسم في جملة الأمير أبي زكريا، وأوصى به إليه إلى أن حدَّثته نفسه بالتوتُّب والخروج. وخامر الرعب من إشاعة تناقلها الدهماء، سببها أن السلطان استحدث سكة من النحاس مقدرة على قيمته من الفضة، حاكى بها سكة الفلوس بالمشرق تسهياً على الناس في المعاملات بإسرافها وتيسيراً لاقتضاء حاجاتهم. ولما كان لحق سكة الفضة من غش اليهود المتناولين لصرفها وصوغها، وسمى سكتها التي استحدثها بالهندوس. ثم أفسدها الناس بالتدليس وضربها أهل الريب ناقصة عن الوزن، وفشا فيها الفساد. واشتد السلطان في العقوبة عليها فقطع وقتل، وصارت ريبة لمن تناولها. وأعلن الناس بالنكير في شأنها وتنادوا بالسلطان في قطعها وكثر الخوض في ذلك وتوقَّعت الفتنة. وأشيع من طريق الحدثان الذي تكلف به العامة أن الخارج الذي

يشير الفتنة هو أبو القاسم بن أبي زيد، فأزال السلطان تلك السكة وعفا عليه، وأهمه شأن أبي القاسم ابن عمه، وبلغه الخبر فخامره الرعب إلى ما كان يحدث نفسه من الخروج، ففر من الحضرة سنة إحدى وستين وستمائة، ولحق بريح ونزل على أميرهم شبل بن موسى بن محمد رئيس الدواودة، فبايع له وقام بأمره. ثم بلغه اعتزام السلطان على النهوض إليه فخشي بادرته واضطرب أمر العرب من قبيله. ولما أحسن أبو القاسم باضطرابهم وخشي أن يسلموه إذا أزداهم السلطان عليها، تحوّل عنهم ولحق بتلمسان وأجاز البحر منها إلى الأندلس، وصحب الأمير أبا إسحاق ابن عمه في مئوى اغتربهما بالأندلس. ثم ساءت أفعاله وعظم استهتاره. وفشا النكير عليه من الدولة فلحق بالمغرب وأقام بتينملل مدة. ثم رجع إلى تلمسان، وبها مات. وقام الأمير أبو إسحاق بمكانه من جوار ابن الأحمر إلى أن كان من أمره ما نذكره.

*** (الخبر عن خروج السلطان إلى المسيلة) ***

لما اتصل بالسلطان شأن أبي قاسم ابن عفه أبي زيد وفصاله عن رباح إلى المغرب بعد عقدهم بيعته، وأجلاهم على البلاد معه، خرج من تونس سنة أربع وستين وستمائة في عساكر الموحدين وطبقات الجند لتمهيد الوطن، ومحو آثار الفساد منه، وتقويم العرب على الطاعة. وتنقل في الجهات إلى أن وصل بلاد رباح فدوخها ومهد أرجاءها، وفر شبل بن موسى وقومه الدواودة إلى القفر، واحتل السلطان بالمسيلة آخر وطن رباح. ووافاه هنالك محمد بن عبد القوي أمير بني توجين من زناتة مجدداً لطاعته، ومتبركاً بزيارته، فتلقاه من البرور تلقي أمثاله، وأثقل كاهله بالحباء والجوائز، وجنب له الجياد المقربات بالمراكب المثقلة بالذهب، واللجم المحلات. وضرب له الفساطيط الفسيحة الأرجاء من ثياب الكتان وجدل القطن، إلى ما يتبع ذلك من المال والظهر والكراع والأسلحة. وأقطع له مدينة مقرة وبلد أوماش من عمل الزاب، وانقلب عنه إلى وطنه.

ورجع السلطان إلى تونس وفي نفسه من رباح ضغن إلى أن صرف إليهم وجه تدييره كما نذكره، ولثانية احتلاله بالحضرة سنة خمس وستين وستمائة كان مهلك مولاة هلال، ويعرف بالقائد،

وكان له في الدولة مكان بما كان تلادا للسلطان، وكان شجاعا جواداً خيراً محباً سهلاً مقبلاً على أهل العلم وذوي الحاجات، وله في سبيل الخير آثار منقولة صار له بها ذكر، فارتمض السلطان لمهلكه والله أعلم .

*** (الخبر عن مقتل مشيخة الداوودة) ***

كان شبيل بن موسى وقومه من الداوودة قد فعلوا الأفاعيل في اضطراب الطاغية، ونصب من لحق بهم من أهل هذا البيت للملك، فبايعوا أولاً للأمير أبي إسحق كما ذكرناه. ثم بعده لأبي القاسم ابن عمّه أبي زيد. وخرج إليهم السلطان سنة أربع وستين وستمائة ودوّخ أوطانهم، ولحقوا بالصحراء ودافعوه على البعد بطاعة ممرضة فتقبّلها، وطوى لهم على البتّ ورجع إلى تونس فأوعز إلى أبي هلال عبّاد عامل بجاية من مشيخة الموحدّين باصطناعهم واستتلافهم لتكون وفادتهم عليه من غير عهد. وجمع السلطان أحلافه من كعوب بني سُلّيم ودباب وأفاريق بني هلال. وخرج من تونس سنة ست وستين وستمائة في عساكر الموحدّين وطبقات الجند. ووافاه بنو عساكر ابن سلطان إخوة بني مسعود بن السلطان من الداوودة فعقد لمهدي بن عساكر على أمانة قومه وغيرهم من رياح. وفرّ بنو مسعود بن السلطان مصحّرين في أثرهم حتى نزل نقاوس وعسكروا بثنايا الزاب، ورسلمهم تختلف إليّ أبي هلال إيناساً للمراجعة على يده للدخلة في الساحة، فأشار عليهم بالوفادة على السلطان وفاء بقصده من ذلك، فتقبلوا إشارته. ووفد أميرهم شبيل بن موسى بن محمد بن مسعود وأخوه يحيى، وبنو عمهما أولاد زيد بن مسعود: سباع بن يحيى بن دريد، وابنه، وطلحة بن ميمون بن دريد، وحداد بن مولاهم ابن خنفر بن مسعود وأخوه، فتقبّض عليهم لحينهم، وعلى دريد ابن تازير من شيوخ كرفة. وانتهبت أسلابهم وضربت أعناقهم ونصبت أشلاؤهم بزواية من خهات نقاوس حيث كانت

بيعتهم لأبي القاسم بن أبي زيد، وبعث برؤوسهم إلى بسكرة فنصبها بها، وأعدَّ السير غازياً إلى أحيائهم وأحلهم بمكانها من ثناية الزاب.

وصبحهم هنالك فأجفلوا وتركوا الظهر والكراع والأبنية، فامتلات أيدي العساكر وسدويكش منها، ونجوا بالعيال والولد على الأفتاب، والعساكر في أتباعهم، إلى أن أجازوا وادي شدى قبلة الزاب، وهو الوادي الذي يخرج أصله منه جبل راشد قبلة المغرب الأوسط، ويمرُّ إلى ناحية الشرق مجتازاً بالزاب إلى أن يصبَّ في سبخة نفاوة من بلاد الجريد. فلما جاز فلهم الوادي أصحروا إلى المفازة المعطشة والأرض الحرة السوداء المستحجرة المسماة بالجمادة، فرجعت العساكر عنهم وانقلب السلطان من غماته ظافراً ظاهراً، وأنشده الشعراء في التهنتة، ولحق فلّ الداودة بملوك زناتة، فنزل بنو يحيى بن دريد على يغمراسن بن زيان، وبنو محمد بن مسعود علي يعقوب بن عبد الحق، فأجاروهم وأوسعوهم حياء وملؤا أيديهم بالصلات، ومرابطهم بالخيال، وأحياءهم بالإيل، ورجعوا إلى مواطنهم فتغلبوا على واركلة وقصور ريغة واقتطعوها من إيالة السيلطان. ثم زحفوا إلى الزاب فجمع لهم عامله ابن عتو وكان موطناً بمقرة، ولقيهم على حدود أرض الزاب فهزموه وأتبعوه إلى بطاوة فقتلوه عندها، واستطالوا على الزاب وجبل أوراس، وبلاد الحضنة إلى أن اقتطعتهم الدول إياها من بعد ذلك، فصارت ملكا لهم، والله تعالى أعلم .

* (الخبر عن طاعية الإفرنجة ومنازلته تونس في أهل نصرانيته) *

هذه الأمة المعروفة بالإفرنجة، وتسميها العامة بالافرانسييس نسبة إلى بلد من أمهات أعمالهم تسمى افرانسة. ونسبهم إلى يافث بن نوح، وهم بالعدوة الشمالية من عدوتي هذا البحر الرومي الغربي ما بين جزيرة الأندلس وخليج قسطنطينة، مجاورون الروم من جانب الشرق والجلالقة من جانب الغرب. وكانوا قد أخذوا بدين النصرانية مع

الروم، ومنهم لُقِنُوا دينها. واستفحل ملكهم عند تراجع ملك الروم، وأجازوا البحر إلى أفريقية مع الروم فملكوها ونزلوا أمصارها العظيمة مثل شَبِيطِلَّةَ وِجَلُولَا وقرطاجنة ومرناق وباغاية ولمس وغيرها من الأمصار. وغلبوا على كل من كان بها من البربر حتى اتبعوهم في دينهم وأعطوهم طاعة الانقياد.

ثم جاء الإسلام وكان الفتح بانتزاع الأعراب من أيديهم سائر أمصار أفريقية، والعدوة الشرقية والجزر المجرية مثل أقريطش ومالطة وصقلية وميورقة ورجوعهم إلى عدوتهم. ثم أجازوا خليج طنجة، وغلبوا القوط والجلالقة والبشكنس، وملكوا جزيرة الأندلس وخرجوا من ثناياها ودورها إلى بسائط هؤلاء الإفرنجة فدوَّخوها وعاثوا فيها. ولم تزل الصوائف تتردُّ إليها صدراً من دولة بني أمية بالأندلس، وكان ولاية أفريقية من الأغلبة ومن قبلهم أيضاً يردُّون عساكر المسلمين وأساطيلهم من العدو حتى غلبوهم على الجزر البحرية، ونازلوهم في بسائط عدوتهم فلم تزل في نفوسهم من ذلك ضغائن، فكان يخالجهما الطمع في ارتجاع ما غلبوا عليه منها.

وكان الربيع أقرب إلى سواحل الشام وطمع فيها. فلما وصل أمر الروم بالقسطنطينية ورومة، واستفحل ملك الفرنجة هؤلاء، وكان ذلك على هيئة سموّ الخلافة بالمشرق، فسموا حينئذ إلى التغلب على معاقل الشام وثغوره، وزحفوا إليها وملكوا الكثير منها واستولوا على المسجد الأقصى وبنوا فيه الكنيسة العظمى بدل المسجد، ونازلوا مصر والقاهرة مراراً حتى جاد الله للإسلام من صلاح الدين أبي أيوب الكردي صاحب مصر والشام في أواسط المائة السادسة جنة واقية، وعذابا على أهل الكفر مصبواً، فأبلى في جهادهم وارتجع ما ملكوه، وطهر المسجد الأقصى من إفكهم وكفرهم، وهلك على حين غرة من الغزو والجهاد. ثم عاودوا الكثرة ونازعوا مصر في المائة السابعة على عهد الملك الصالح صاحب مصر والشام، وأيام الأمير أبي زكريا بتونس، فضربوا أبنيتهم بدمياط وافتتحوها وتغلبوا في قري مصر. وهلك الملك الصالح خلال ذلك، وولي ابنه المعظم وأمكنت المسلمين في الغزو فرصة أيام فيض النيل، ففتحو الغياض وأزالوا مدد الماء فأحاط بمعسكرهم وهلك منهم عالم، وقيد سلطانهم أسيراً

من المعركة إلى السلطان فاعتقله بالإسكندرية، حتى مرّ عليه بعد حين من الدهر وأطلقه على أن يمكنوا المسلمين من دمياط فوقوا له. ثم على شرط المسالمة فيما بعد فنقضه لمدة قريبة، واعتزم على الحركة إلى تونس متجنّباً عليهم فيما زعموا بمال أدعياء تجّار أرضهم، وأنهم أقرضوا اللياني فلما نكبه السلطان طالبوه بذلك المال وهو نحو ثلاثمائة دينار بغير موجب يستندون إليه، فغضبوا لذلك واشتكووا إلى طاغيتهم فامتعض لهم ورعبوه في غزو تونس لما كان فيها من المجاعة والموتان.

فأرسل الفرنسيين طاغية الافرنج واسمه سنلويس بن لويس وتلقّب بلغة الافرنج روا فرنس ومعناه ملك افرنس، فأرسل إلى ملوك النصارى يستنفرهم إلى غزوها، وأرسل إلى القائد خليفة المسيح بزعمهم فأوعز إلى ملوك النصرانية بمظاهرتة، وأطلق يده في أموال الكنائس مدداً له. وشاع خبر استعداد النصارى للغزو في سائر بلادهم، وكان الذين أجابوه للغزو ببلاد المسلمين من ملوك النصرانية ملك الانكثار وملك اسكوسيا وملك تورك وملك برشلونة واسمه ريدراكون وجماعة آخرون من ملوك الإفرنج، هكذا ذكر ابن الأثير وأهم المسلمين بكل ثغر شأنهم وأمر السلطان في سائر عمالاته بالاستكثار من العدة، وأرسل في الثغور لذلك بإصلاح الأسوار واختزان الحبوب، وانقبض تجّار النصارى عن تعاهد بلاد المسلمين. وأوفد السلطان رسله إلى الفرنسيين لاختبار حاله ومشارطته على ما يكف عزمه. وحملوا ثمانين ألفاً من الذهب لاستتمام شروطهم فيما زعموا، فأخذ المال من أيديهم وأخبرهم أنّ غزوه إلى أرضهم. فلما طلبوا المال اعتلّ عليهم بأنه لم يباشر قبضه ووافق شأنهم معه وصول رسول عن صاحب مصر، فأحضر عند الفرنسيين واستجلس فأبى وأنشده قائلاً من قول أبي مطروح شاعر السلطان بمصر:

قل للقرنيس إذا جئته مقال صدق من وزير
نصيح

آجرك الله على ما جرى من قتل عباد نصارى
المسيح

أتيت مصرأً تبتغي ملكها تحسب أن الزمر بالطبل
ريح

فساقك الحين إلى أدهم ضاق به عن ناظرِك
الفسيح

وكل أصحابك أودعتهم بسوء تدبيرك بطن الصريح

سبعون ألفاً لا يرى منهم جريح
إلا قتل أو أسير

ألهمك الله إلى مثلها يستريح
لعل عيسى منكم

إن كان بابكم بذا راضياً نصيح
فرب عث قد أتى من

فاتخذوه كاهناً إنه سطيح
أنصح من شق لكم أو

وقل لهم إن أزمعوا عودة قبيح
لأخذ ثارٍ أو لشغلٍ

دار ابن لقمان على حالها والقيد باقي والطواشي صبيح

يعني بدار ابن لقمان موضع اعتقاله بالإسكندرية، والطواشي في عرف أهل مصر هو الخصي. فلما استكمل إنشاده لم يزد ذلك الطاغية إلا عتواً واستكباراً، واعتذر عن نقض العهد في غزو تونس بما يسمع عنهم من المخالفات، عذراً دافعهم به، وصرف الرسل من سائر الأفاق ليومه. فوصل رسل السلطان منذرين بشأنهم، وجمع الطاغية حشده وركب أساطيله إلى تونس آخر ذي القعدة سنة ثمان وستين وستمئة، فاجتمعوا بسردانية وقيل بصقلية. ثم واعدتهم بمرسى تونس وأقلعوا ونادى السلطان في الناس بالذير بالعدو والاستعداد له، والنفير إلى أقرب المدائن، وبعث الشواني لاستطلاع الخبر، واستفهم أياماً.

ثم توالى الأساطيل بمرسى قرطاجنة، وتفاوض السلطان مع أهل الشورى من الأندلس والموحدين في تخليتهم وشأنهم من النزول بالساحل أو صدّهم عنه، فأشار بعضهم بصدّهم حتى تنفذ ذخيرتهم من الزاد والماء، فيضطرون إلى الإقلاع. وقال آخرون إذا أقلعوا من مرسى الحضرة ذات الحامية والعدد صبحوا بعض الثغور سواها فملكوه واستباحوه، واستصعبت مغالبتهم عليه

فوافق السلطان علي هذا وخلوا وشأنهم من النزول فنزلوا
بساحل قرطاجنة بعد أن ملئت سواحل رودس بالمرابطة بجند
الأندلس والمطوعة زهاء أربعة آلاف فارس، لنظر محمد بن
الحسين رئيس الدولة.

ولما نزل النصارى بالساحل وكانوا زهاء ستة آلاف فارس،
وثلاثين ألفاً من الرّجاله فيما حدثني أبي عن أبيه رحمهما الله.
قال: وكانت أساطيلهم ثلاثمائة بين كبار وصغار،

وكانوا سبعة يعاسيب كان فيهم الفرنسيس وإخوة جرون صاحب صقلية وصاحب الجزر، والعلجة زوج الطاغية تسمى الرينة، وصاحب البر الكبير، وتسميهم العامة من أهل الأخبار ملوكاً ويعنون أنهم متباينون إذ ظاهروا على غزو تونس، وليس كذلك. وإنما كان ملكاً واحداً وهو طاغية الفرنجة وإخوته ويطارقتهم، عدّ كل واحد منهم ملكاً لفضل قوته وشدة بأسه، فأنزلوا عساكرهم في المدينة القديمة من قرطاجنة، وكانت ماثلة الجدران اضطرم المعسكر بداخلها، ووصلوا ما فصله الخراب من أسوارها بألواح الخشب ونصّدوا شرفاتها، وأداروا على السور خندقاً بعيد المهوى وتحصّنوا. وندم السلطان على إضاعة الحزم في تخريبها أو دفاعهم عن نزلها. وأقام ملك الفرنجة وقومه متمرسين بتونس ستة أشهر، والمدد يأتيه في أساطيله من البحر من صقلية والعدوة بالرجل والأسلحة والأقوات.

وسلك بعض المسلمين طريقاً في البحرية، واتبعهم العرب فأصابوا غرة في العدو فظفروا وغنموا وشعروا بمكانهم، فكلفوا بحراسة البحيرة وبعثوا فيها الشواني بالرماة ومنعوا الطريق إليهم وبعث السلطان في ممالكه حاشداً فوافته الأمداد من كل ناحية، ووصل أبو هلال صاحب بجاية وجاءت جموع العرب وسدويكش وولهاصة وهوارة حتى أمده ملوك المغرب من زناتة وسرح إليه محمد بن عبد القوي عسكر بني توجين لنظر ابنه زيّان. وأخرج السلطان ابنتيه وعقد لسبعة من الموحدّين على سائر الجند من المرتزقة والمطوعة وهم: إسماعيل بن أبي كلداسن وعيسى بن داود ويحيى بن أبي بكر ويحيى بن صالح وأبو هلال عياد صاحب بجاية ومحمد بن عبو، وأمرهم كلهم راجع ليحيى بن صالح ويحيى بن أبي بكر منهم.

واجتمع من المسلمين عدداً لا يحصى، وخرج الصلحاء والفقهاء والمرابطون لمباشرة الجهاد بأنفسهم والتزم السلطان القعود بإيوانه مع بطانته وأهل اختصاصه وهم: الشيخ أبو سعيد المعروف بالعود، وابن أبي الحسين وقاضيه أبو القاسم بن البراء وأخو العيش. واتصلت الحرب، والتقوا في منتصف محرم سنة تسع بالمنصف، فزحف يومئذ يحيى صالح وجرون. فمات من الفريقين خلق، وهجموا على المعسكر بعد العشاء وتدامر المسلمون عنده ثم غلبوا عليه بعد أن قتل من النصاري زهاء

خمسمائة، فأصبحت أبنيته مضروبة كما كانت. وأمر بالخندق على المعسكر فتعاورته الأيدي، واحتفر فيه الشيخ أبو سعيد بنفسه، وابتلي المسلمون بتونس، وظنوا الظنون. واتهم السلطان بالتحول عن تونس إلى القيروان.

ثم إنَّ الله أهلك عدوهم وأصبح ملك الفرنجة ميتاً يقال حتف أنفه، ويقال أصابه سهم غرب في بعض المواقف بأبته ويقال أصابه مرض الوباء، ويقال وهو بعيد أن السلطان بعث إليه مع ابن جرام الدلاصي بسيف مسموم وكان فيه مهلكه. ولما هلك اجتمع النصارى على ابنه دمياط، سفي بذلك لميلاده بها فبايعوه، واعتزموا على الإقلاع. وكان أمرهم راجعاً إلى العلجة فراسلت المستنصر أن يبذل لها ما خسروه في مؤنة حركتهم، وترجع بقومها فأسعفها السلطان لما كان العرب اعتزموا على الانصراف إلى مشاتهم.

وبعث مشيخة الفقهاء لعقد الصلح في ربيع الأول سنة تسع وستين وستمائة فتولى عقده وكتابه القاضي ابن زيتون لخمسة عشر عاماً. وحضر أبو الحسن علي بن عمرو وأحمد بن الغماز وزيان بن محمد بن عبد القوي أمير بني توجين، واختص جرون صاحب صقلية بسلم عقده على جزيرته. وأقلع النصارى بأساطيلهم، وأصابهم عاصف من الريح أشرفوا على العطب، وهلك الكثير منهم. وأغرم السلطان الرعايا ما أعطى العدو من المال فأعطوه طواعية. يقال إنه عشرة أحمال من المال، وترك النصارى بقرطاجنة تسعين منجنيقاً. وخاطب السلطان صاحب المغرب وملوك النواحي بالخبر ودفاعه عن المسلمين وما عقده من الصلح، وأمر بتخريب قرطاجنة وأن يؤتى بنيانها من القواعد، فصير أبنيتها طامسة ورجع الفرنجة إلى دعوتهم فكان آخر عهدهم بالظهور والاستفحال، ولم يزالوا في تناقص وضعف إلى أن افترق ملكهم عمالات. واستبد صاحب صقلية لنفسه، وكذا صاحب نايل وجنوة وسردانية، وبقي بيت ملكهم الأقدم لهذا العهد على غاية من الفشل والوهن. والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الخبر عن مهلك رئيس الدولة أبي عبد الله بن أبي الحسين وأبي سعيد العود الرطب:

أصل هذا الرجل من بني سعيد رؤساء القلعة المجاورة لغرناطة، وكان كثير منهم قد استعملوا أيام الموحدين بالعدوتين، وكان جده أبو الحسن سعيد صاحب الأشغال بالقيروان. ونشأ حافده هذا في كفالته. ولما عزل وقفل إلى المغرب هلك ببونة سنة أربع وستمائة، ورجع حافده محمد إلى تونس والشيخ أبو محمد بن أبي حفص صاحب أفريقية لذلك العهد فاعتلق بخدمة ابنه أبي زيد. ولما ولي الأمر بعد وفاة أبيه غلب محمد هذا على هواه. ثم جاء السيد أبو علي من مراكش على أفريقية، وارتحل أبو زيد إلى مراكش ومحمد بن أبي الحسين إلى تونس، واتصل الأمير أبي زكريا لأول استبداده فغلب على هواه، وكان مبختاً في صحابة الملوك. ولما ولي المستنصر أجراه على سننه برهة، ثم تنكر له إثر كائنه اللحياني، وعظمت سعاية أعدائه من البيطانة وأشاعوا بمداخلته لأبي القاسم ابن مخدومه أبي زيد ابن الشيخ أبي محمد، فنكبه السلطان واعتقله بداره تسعة أشهر. ثم سرحه وأعادته إلى مكانه وثار من أعدائه، واستولى على أمور السلطان إلى أن هلك سنة إحدى وسبعين وستمائة.

وكان ابن عمه سعيد بن يوسف بن أبي الحسن صاحب أشغال الحضرة، وكان قد أفنى مالا جسيماً، ونال من الحضرة منالاً وعظيماً وكان الرئيس أبو عبد الله متفنناً في العلوم مجيداً في اللغة. يقرض الشعر فيحسن، ويرسل فيجيد وينثر فيحسن. وله من التوايف: كتاب ترتيب المحكم لابن سيده على نسق الصحاح للجوهري واختصاره، وسمّاه الخلاصة. وكان في رياسته صليب الرأي قوي الشكيمة عالي الهمة، شديد المراقبة والحزم في الخدمة، وله شعر نقل منه التجاني وغيره. ومن أشهر ما نقل عنه من شعره يخاطب عنان بن جابر عن الأمير أبي زكريا لما خالف واتبع ابن غانية، وهي على روي الراء، كان قبلها أخرى على روي

الدال. وكان له ولد إسمه سعيد، وترقى في حياة أبيه المراتب السلطانية. ثم اغتبط دون غايته. وفي ثالثة مهلكه كان مهلك الشيخ أبي سعيد عثمان بن محمد الهنتاتي المعروف بالعود الرطب، ويعرف أهل بيته بالمغرب بيني أبي زيد. وكان منهم عبد العزيز المعروف بصاحب الأشغال كان فر من المغرب أيام السعيد لجفوة نالته، ولحق بسجلماسة سنة إحدى وأربعين. وقد كان انتزى بها عبدالله الهزرجي، وباع للأمير أبي زكريا فأجازه عبد الله إلى تونس، ونزل على الأمير أبي زكريا ونظمه في طبقات مشيخة الموحدين وأهل مجلسه. ثم حظي عند ابنه المستنصر بعد نكبة بني النعمان حظوة لا كفاء لها. واستولى على الرأي والتدبير إلى أن هلك سنة ثلاث وسبعين وستمائة فشيخ طيب الذكر ملحقا بالرضوان من الخاصة والكافة، والله مالك الأمور.

الخبر عن انتقاض أهل الجزائر وفتحها:

كان أهل الجزائر لما رأوا تقلص ظل الدولة عن زناتة وأهل المغرب الأوسط حدثوا أنفسهم بالاستبداد والقيام على أمرهم، وخلص ربة الطاعة من أعناقهم فجاهروا بالخلعان. وسرح السلطان إليهم العساكر سنة تسع وستين وستمائة، وأوعز إلى صاحب ثغر بجاية، وهو أبو هلال عياد بن سعيد الهنتاتي فزحف إليها في عساكر الموحدين سنة إحدى وسبعين وستمائة، ونازلها مدة حول. وامتنعت عليه فأقلع عنها ورجع إلى بجاية، وهلك بمعسكره بيني ورا سنة ثلاث وسبعين وستمائة.

ثم إن السلطان صرف عزمه إلى منازلهم سنة أربع وسبعين وستمائة وسرح إليهم العساكر في البر، وأنفذ الأساطيل في البحر وعقد على عسكر تونس لأبي الحسن بن ياسين، وأوعز إلى عامل بجاية بإنفاذ عسكر آخر فأنفذه لينظر أبي العباس بن أبي الأعلام، ونهضت هذه العساكر برا وبحرا إلى أن نازلتها وأحاطت بها من كل جانب، واشتد حصارها. ثم اقتحمت عنوة واستحر فيهم القتل، وانتهبت المنازل، وافتضح الكرائم في أبقارهن. وتقبض على مشيخة البلد فنقلوا إلى تونس صفدين، واعتقلوا بالقصبة إلى أن سرحهم الواصل بعد مهلك السلطان والله تعالى أعلم.

الخبر عن مهلك السلطان المستنصر ووصف شيء من أحواله:

كان السلطان بعد فتح الجزائر قد خرج من تونس للصيد وتفقد العملات، فأصابه في سفره مرض ورجع إلى داره، واشتدت عمته وكثر الإرجاف بموته. وخرج يوم الأضحى سنة خمس وسبعين وستمئة يتهدى بين رجلين، ورجلاه لا يخطان الأرض. وجلس للناس في منبر متجلداً. ثم دخل بيته وهلك ليلته رضوان الله عليه، وكان شأن هذا المستنصر في ملوك آل أبي حفص عظيماً. وشهرته طائفة الذكر بما انفسح أمد سلطانه، ومدت إليه ثغور القاصية من العدوتين يد الاعتصام به. وما اجتمع بحضرته من أعلام الناس الوافدين على أبيه وخصوصاً الأندلس، من شاعر مفلق وكاتب بليغ وعالم نحير وملك أروع وشجاع أهيش، متفيئين ظل ملكه متناغين في اللياذ به، لطموس معالم الخلافة شرقاً وغرباً على عهده، وخفوت صوت الملك إلا في إيوانه.

فقد كان الطاغية التهم قواعد الملك بشرق الأندلس وغربها، فأخذت قرطبة سنة

ثلاث وثلاثين وستمئة، وبلنسية سنة ست وثلاثين وستمئة بعدها، وأشبيلية سنة ست وأربعين وستمئة. واستولى الططر على بغداد دار خلافة العرب بالمشرق وحاضرة الإسلام سنة ست وخمسين وستمئة، وانتزع بنو مَرين ملك بني عبد المؤمن. واستولوا على حضرة مراکش دار خلافة الموحدين سنة ثمان وستين وستمئة، كل ذلك على عهده وعهد أبيه ودولتهم أشد ما كانت قوة وأعظم رفاهية وجباية، وأوفر قبلاً وعصابة وأكثر عساكر وجندا، فأمله أهل العالم للكرة، وأجفلوا إلى الإمساك بحقوقه. وكانت له في الأبهة والجلال أخبار، وفي الحروب والفتوح آثار مشهورة، وفي أيامه عظمت حضارة تونس، وكثر ترف ساكنها. وتأنق الناس في الملابس والمراكب والمباني

والماعون والأبنية، فاستجادوها وتناغوا في اتخاذها وانتقائها إلى أن بلغت غايتها. ثم رجعت من بعده أدراجها، والله مالك الأمور ومصرفها.

الخبر عن بيعة الواثق يحيى بن المستنصر وهو المشهور بالمخلوع وذكر أحواله:

لما هلك السلطان المستنصر سنة خمس وسبعين وستمئة كما قدمناه، اجتمع الموحدون

وسائر الناس على طبقاتهم إلى ابنه يحيى، فبايعوه ليلة مهلك أبيه، وفي غدها وتلقب الواثق. وافتتح أمره برفع المظالم وتسريح أهل السجون وإفاضة العطاء في الجند وأهل الديوان، وإصلاح المساجد، وإزالة كثير من الوظائف عن الناس. وامتدحه الشعراء فأسنى جوائزهم، وأطلق عيسى بن داود من اعتقاله، وردّه إلى حاله. وكان المتولي لأخذ البيعة على الناس والقيام بأمره سعيد بن يوسف بن أبي الحسين لمكانه من الدولة ورسوخه في الشهرة، فقام بالأمر ولم يزل على ذلك إلى أن نكبه وأدال منه بالحبير والله أعلم.

الخبر عن نكبة ابن أبي الحسين واستبداد ابن ا

الحبير على الدولة:

كان هذا وإسمه يحيى بن عبد الملك الغافقي وكنيته أبو الحسن أندلسياً من أعمال مرسية، وقد مع الجالية من شرق الأندلس أيام استيلاء العدو، وكان يحسن الكتاب ولم يكن له من خلال سواها، فصرف في الأعمال ثم ارتقى إلى خدمة ابن أبي الحسين فاستكتبه، ثم رقاها إلى ولاية الديوان فعظمت حاله وكانت له أثناء ذلك مداخلة للواثق ابن السلطان اعتدّها له سابقة. فلما استوسق الأمر للواثق رفع منزلته واختصّه بالشورى، وقلده كتاب علامته. وكان سعيد بن أبي الحسين مزاحماً له منافساً لما كان أسف منه بقديمه. فأغرى به السلطان ورغبه في ماله فتقبض على سعيد بن أبي الحسين لسته أشهر من الدولة سنة ست وسبعين وستمئة واعتقل

بالقصة. وتقبض على نقله ابن ياسين وابن صياد الرّجاله وغيرهم، وقدم على الأشغال مدافعاً من الموالي العلوجي. ووكل أبو زيد بن أبي الأعلام من الموحدين بمصادرة ابن أبي الحسين على المال وامتحانه.

ولم يزل يستخرج منه حتى ادّعى الإملاق واستحلف فجلف، ثم ضرب فادعى مؤتمناً من ماله عند قوم استكشفوا عنه فأدوه. ثم دلّ بعض مواليه على ذخيرة بداره دفينه فاستخرج منها زهاء ستمائة ألف من الدنانير، فلم يقبل بعدها مقاله، وبسط عليه العذاب إلى أن هلك في ذي الحجة من سنته، ودفن شلوه بحيث لم يعرف مدفنه واستبد أبو الحسن الحبير على الدولة والسلطان، وبعث أخاه أبا العلى واليا على بجاية، وأسف المشيخة والبطانة بعتوه واستبداده وما يتحشموه من مباكرة بابه، إلى أن عاد وبال ذلك على الدولة كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن إجازة السلطان أبي إسحق من الأندلس

ودخول أهل بجاية في طاعته:

كان السلطان المستنصر قد عقد على بجاية سنة ستين وستمئة لأبي هلال عياد بن سعيد الهنتاتي، وأدال به من أخيه الأمير أبي حفص، فأقام والياً عليها إلى أن هلك بنو ورا سنة ثلاث وسبعين وستمئة كما ذكرناه. وعقد عليها من بعده لابنه محمد، فكان له غناء في ولايته، واضطلع بأمره إلى أن هلك المستنصر، وولى ابنه الواثق فبادر إلى إيتاء طاعته، وبعث وفد بجاية بيعتهم. ثم قلد أبو الحسن الحبير القائم بالدولة أخاه إدريس ولاية الأشغال ببجاية، فقام بها واقتنى الأموال، وتحكم في المشيخة. وأنف محمد بن أبي هلال من استبداده عليه، فهم إدريس بنكبته فخشي محمد بن أبي هلال بادرته، وداخل بعض بطانته في قتله. وفاوض الملك فيه فعدوا عليه لأوّل ذي القعدة سنة سبع وسبعين وستمئة بمقعده من باب السلطان، فقتلوه ورموا برأسه إلى الغوغاء والزعانف فعبثوا به.

ووافق ذلك حلول السلطان أبي إسحق بتلمسان وكان عند بلوغ الخبر إليه بمهلك أخيه المستنصر، أجمع أمره على الإجازة لطلب حقه بعدما تردد برهة. ثم اعتزم وأجاز إلى تلمسان، ونزل على يغمراسن ابن زيّان فقام لمورده، واحتفل في مبرّته. وفعل أهل بجاية وابن أبي هلال فعلتهم، وخشوا بوادر السلطان بالحضرة فخاطبوا السلطان أبا إسحق، وأتوه بيعتهم وبعثوا وفدهم يستحثونه للملك، فأجابهم ودخل إليهم آخر ذي القعدة من سنته، فبايعه الموحدون والملا من أهل بجاية. وقام بأمره محمد بن أبي هلال. ثم زحف في عساكره إلى قسنطينة فنازلها، وبها عبد العزيز بن عيسى بن داود، فامتنت عليه فأقلع عنها إلى أن كان من أمره ما نذكره.

الخبر عن خروج الأمير أبي حفص بالعساكر للقاء

السلطان أبي إسحاق ثم دخوله في طاعته وخلع الوثائق:

لما بلغ الخبر إلى الوثائق ووزيره المستبّد عليه ابن الحبير بدخول السلطان أبي إسحق بجاية، سرح العساكر إلى حربه، وعقد عليها لعّمه أبي حفص. واستوزر له أبا زيد بن جامع، فخرج من تونس واضطرب معسكره ببجاية. وعقد الوثائق على قسنطينة لعبد العزيز بن عيسى بن داود لذمة صهر كانت له من ابن الحبير، فتقدم إلى قسنطينة، ومانع عنها الأمير أبا إسحق كما ذكرناه. ثم اضطرب رأي ابن الحبير في خروج الأمير أبي حفص، وأراد انفضاض عسكره فكتب الوثائق إلى أبي حفص ووزيره ابن جامع يغري كل واحد منهما بصاحبه، فتفاوضا واتفقا على الدعاء للأمير أبي إسحق، وبعثوا إليه بذلك. واتصل الخبر بالوثائق وهو بتونس منتبذا عن الحامية والبطانة، فاستيقن ذهاب ملكه، وأشهد الملا، وانخلع عن الأمر لعمه السلطان أبي إسحق غرّة ربيع الأول من سنة ثمان وسبعين وستمائة، وتحوّل عن قصور الملك بالقصبة إلى دار الأقوري وانقرضت دولته وأمره، والبقاء لله وحده.

الخبر عن استيلاء السلطان أبي إسحق علي الحضرة:

لما بلغ السلطان أبا إسحق كتاب أخيه الأمير أبي حفص وابن جامع من باجة،

بادر مغذاً إليهم. ثم وإفاه خبر انخلاع الوثائق ابن أخيه بتونس، فارتحلوا جميعاً وتساييل أهل الحضرة على طبقاتهم إلى لقائه، وأتوه طاعتهم. ودخل الحضرة منتصف ربيع الآخر سنة ثمان وسبعين وستمئة، ومحمد بن أبي هلال شيخ دولته. وعقد على حجابته لأبي القاسم ابن شيخ كاتب ابن أبي الحسني، وعلى خطة الأشغال لابن أبي الحسن بن خلدون. كان مع وند أبيه الحسن على الأمير أبي زكريا من أشبيلية لذمة رعاها لهم، بما كانت أمّ ولده أمّ الخلائف من هدايا ابن المحتسب أبي زكريا محلهم ورحل الحسن إلى المشرق ومات هنالك، وبقي ابنه أبو بكر بالحضرة، فاستعمله الأمير أبو إسحق لأوّل دخوله في خطة الأشغال، ولم يكن يليها إلا الموحدون كما قلناه. وعقد لفضل بن علي بن مزني بن مزني ذفة اغترابه معه إلى الأندلس، فعقد له على الزاب، ولأخيه عبد الواحد على بلاد قسطيلية. ثم تقبض على ابن الحبير، وأمر باعتقاله ودفعه إلى موسى بن محمد بن ياسين للمصادرة والامتحان. ووجد مكان التمايم عليه طواع وطلسمات مختلفة الأشكال والصور، تسحر بها فيما زعموا مخدومه فحاق به وبالها. وكان شأنه في الامتحان والاستحلاف والهلاك بالعذاب، شأن سعيد بن أبي الحسين منكوبه أيام دولته، إلى أن هلك شهر جمادى الأولى من سنته، والله لا يظلم مثقال ذرة.

ولما اقتعد السلطان أبو إسحق كرسيّ ملكه، واستوثقت عرى خلافته، تقبض على محمد بن أبي هلال، وقتله لحين نكبته سنة ست وسبعين وستمئة، لما كان يتوقع منه من المكروه في الدولة، وما عرف به من المساعي في الفتنة والله أعلم.

الخبر عن مقتل الواثق وولده:

لما انخلع الواثق عن الأمر وتحول إلى دار الأقوري فأقام بها أياماً، وكان له ثلاثة من الولد أصغر: الفضل والطاهر، والطيب، فكانوا معه. ثم نمي عنه للسلطان أبي إسحق أنه يروم الثورة، وأنه داخل في ذلك بعض رؤساء النصارى الجند، فأقلق السلطان مكان ترشيحه، واعتقله بمكان اعتقال بنيه هو من القصبه أي ام أخيه المستنصر. ثم بعث إليهم ليلته فذبحوا جميعاً شهر صفر سنة تسع وتسعين وستمائة. واستوسق له الأمر، وأطلق من عنان الإمارة لولده، إلى أن كان من شأنهم ما يذكر إن شاء الله تعالى

الخبر عن ولاية الأمير أبي فارس افي السلطان أبي إسحق علي بجاية بعهد أبيه والسبب في ذلك:

كان للسلطان أبي إسحق من الأبناء خمسة: أبو فارس عبد العزيز، وكان أكبرهم، وأبو محمد عبد الواحد، وأبو زكريا يحيى، وخالد وعمر. وكان السلطان المستنصر قد حبسهم، عند فرار أبيهم إلى رباح في أيامه، ببعض حجر القصر وأجرى عليهم رزقاً فنشئوا في ظل كفالتة وجميم رزقه، إلى أن استولى أبوهم السلطان أبو إسحق على الملك فطلعوا بأفاهه. وطالت فروعهم في دوحه، واشتملوا على العز، واصطنعوا أهل السوايق من الرجال، وأرخی السلطان لهم. ظلهم في ذلك. وكان المجلي فيها كبيرهم أبو فارس بما كان مرشحاً لولاية العهد، وكان ممن اصطنعه وألقى عليه رداء محبته في الناس وعنايته، أحمد بن أبي بكر بن سيد الناس اليعمري، وأخوه أبو الحسين، لسابقة رعاها لهما.. وذلك أنّ أباهما أبا بكر بن سيد الناس، كان من بيوت أشبيلية حافظاً بالحديث رواية له. ظاهرياً في فقهه على مذهب داود وأصحابه. وكانت لأهل أشبيلية خصوصاً من بين الأندلس وصلة بالأمير أبي زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص وبنيه، منذ ولايته غرب الأندلس.

فلما تكالب الطاغية على الدولة، والتهم ثغورها واكتسح بسائطها. وأشفَّ إلى قواعدها وأمصارها، أجاز الأعلام وأهل البيوت إلى أرض المغربين وأفريقية. وكان تصدهم إلى تونس أكثر لاستفحال الدولة الحفصية بها. فلما رأى الحافظ أبو بكر اختلال أحوال الأندلس وقبح مصائرهما، فى خفة ساكنها، أجمع الرحلة عنها إلى ما كان بتونس من سابقته عند هؤلاء الخلفاء. فأجاز البحر ونزل بتونس، فلقاه السلطان تكرمة، وجعل إليه تدريس العلم بالمدرسة عند حمام الهوا التى أسستها أمه أم الخلائف.

ونشأ بنوه أحمد وأبو الحسين فى جو الدولة وحجر كفالتها للاختصاص الذى كان لأبيهم بها. وعدلوا عن طلب العلم إلى طلب الدنيا، وتشوَّقوا إلى مراتب السلطان، واتصلوا بأبناء السلطان أبي إسحق بمكانهم من حجر القصر، حيث أنزلهم عنهم بعد مذهب أبيهم فخالطوهم واستخدموا لهم. ولما استولى السلطان على الأمر ورشح ابنه أبا فارس العهد، وأجراه على سنن الوزارة، فاصطنع أحمد بن سيّد الناس، ونوه باسمه وخلع عليه لبوس كرامته. واختصه بلقب حجابته، وأخوه أبو الحسين يناهضه فى ذلك عنده. ونفس ذلك عليهما البطانة فأغروا السلطان أبا إسحق بابنه، وخوَّفوه شأنه. وإن أحمد بن سيد الناس داخله فى التوثب بالدولة. وتولى كبر هذه السعاية عبد الوهاب بن قائد الكلاعي من عليّة الكتاب ووجههم. كان يكتب للعامّة يومئذ، فسطا السلطان بابن سمد الناس سنة تسع وستين وستمئة آخر ربيع، استدعى إلى باب القصر فتعاورته السيوف هبرا، ووري شلوه ببعض الحفر. وبلغ الخبر إلى الأمير أبي فارس فركب إلى أبيه فى لبوس

الحزن، فعزّاه أبوه عن ذلك بأنه ظهر لابن سيّد الناس على المكر والخديعة بالدولة. وأماط سواده بيده، ونجا أبو الحسين من هذه المهلكة. واعتقل فى لفة من رجال الأمير أبي فارس وبطانته، بعد أن توارى أياماً إلى أن أطلق من حبسه، وكان من أمره ما نذكره بعد. واستبلغ السلطان فى تانيس ابنه، ومسح الضغينة عن صدره، وعقد له على بجاية وأعمالها، وأنفذه إليها أميراً مستقلاً وأنفذ معه فى رسم الحجابة جدي محمد ابن صاحب أشغاله أبي بكر بن

الحسن بن خلدون، فخرج إليها سنة تسع وستين وستمائة،
وقام بأمرها ولم يزل أميراً بها إلى آخر دولته كما نذكره والله
أعلم.

الخبر عن ثورة ابن الوزير بقسنطينة ومقتله:

اسم هذا الرجل أبو بكر بن موسى بن عيسى، ونسبته في
كومية من بيوت الموحدين. كان مستخدماً لابن كلداسن الوالي
بقسنطينة بعد ابن النعمان من مشيخة الموحدين أيام المتنصر.
ووفد ابن كلداسن عليّ الحضرة، وأقام ابن وزير نائياً عنه
بقسنطينة، فكان له غنا وصرامة. وولاه السلطان حافظاً على
قسنطينة. واتصلت ولأيته، وهلك المستنصر، واضطربت الأحوال.
ثم ولأه الواثق، ثم السلطان أبو إسحق وكان ابن وزير هذا طموحاً
جموح الأمل، وعلم أن قسنطينة معقل ذلك القطر وحصنه فحدثته
نفسه بالامتناع بها، والاستبداد على الدولة. وساء أثره في أهلها
فرفعوا أمرهم إلى السلطان أبي إسحق، واستعدوه فلم يعدهم
لما رأى من مخايل انحرافه عن الطاعة. وكتب هو بالاعتذار
والنكير لما جاءوا به فتقبل وأغضى له عن هناته. ولما مر به الأمير
أبو فارس إلى محل إمارته من بجاية سنة تسع وسبعين وستمائة،
قعد عن لقائه وأوفد عليه جمعاً من الصلحاء بالمعاذير
والاستعطاف، فمنحه من ذلك كفاء مرضاته، حتى إذا أبعده الأمير
أبو فارس إلى بجاية، اعتزم هو على الانتزاع. وكاتب ملك أرغون
في جيش النصرى يكون معه في ثغره، يردد بهم الغزو على أن
يكون فيما زعموا داعيةً له فأجابه ووعدته ببيعث الأسطول إليه،
فجاهر بالخلعان، وانتزى بثغر قسنطينة داعياً لنفسه آخر سنة
ثمانين وستمائة.

وزحف إليه الأمير أبو فارس من بجاية في ساكره، واحتشد
الأعراب وفرسان

القبائل إلى أن احتل بميلة. ووفد عليه مشيخة من أهل قسنطينة بمكر من الرغبة والتوسل، بعثهم بها ابن وزير، فأعرض عنهم وصبح قسنطينة في أول ربيع سنة إحدى وثمانين وستمائة، فنازلها وجمع الأيدي على حصارها. ونصب المجانيق وقرب مقاعد الرماة، وقتلها يوماً أو بعض يوم، وتسوّر عليهم المعقل من بعض جهاته. وكان المتولي لتسوّره حاجبه محمد بن أبي بكر بن خلدون، وأبلى ابن وزير عند الصدمة حتى احيط به، وقتل هو وأخوه وأشياعهما، ونصبت رؤوسهم بسور البلد. وتميشى الأمير في سكك البلد مسكناً ومؤنساً، وأمر برئم ما تتلم من الأسوار وبإصلاح القناطر. ودخل إلى القصر، وبعث بالفتح إلى أبيه بالحضرة. وجاء أسطول النصارى إلى مرسى القل في مواعدة ابن وزير، فأخفق مسعاهم، وارتحل لأمير أبو فارس ثلاثة الفتح إلى بجاية، فدخلها آخر ربيع من سنته، والله أعلم.

الخبر عن قيادة أبناء السلطان العساكر إلى الجهات:

كان السلطان يؤثر أبناءه بمراتب ملكه، ويوليهم خطط سلطانه شغفاً بهم وترشياً لهم، فعقد في رجب سنة إحدى وثمانين وستمائة وستمائة لإبنه أبي زكريا على عسكر من الموحدين والجند، وبعثه إلى قفصة للإشراف على جهاتها. وضم مجابها فخرج إليها وقضى شأنه من حركته، وانصرف إلى تونس في رمضان من سنته. ثم عقد لإبنه الآخر أبي محمد عبد الواحد على عسكره، وأنفذه إلى وطن هواره لاقتضاء مغارمهم وجباية ضرائبهم وفرائضهم، وبعث معه عبد الوهاب ابن قائد الكلاعي مباشراً لذلك وواسطة بينه وبين الناس، فانتهى إلى القيروان، وبلغه شأن الدعي وظهوره في دياب بنواحي طرابلس، فطيّر بالخبر إلى السلطان وأقبل على شأنه. ثم انتشر أمر الدعي فانكفاً راجعاً إلى تونس، والله تعالى أعلم.

الخبر عن صهر السلطان مع عثمان بن يغمراسن:

كان السلطان لما أجاز البحر من الأندلس لطلب ملكه، ونزل على يغمراسن بن زيان بتلمسان، فاحتفل لقدمه، وأركب الناس للقائه، وأتاه ببيعته على عادته من سلفه لما علم أنه أحق بالأمر، ووعد النصره من عدّوه والمؤازرة على أمره، وأصهر إليه في إحدى بناته المقصورات في خيام الخلافة بابنه عثمان تشریفاً خطبه منه، فولاه الإسعاف به. ولما استولى السلطان على حضرته واستبد بأحوال ملكه بعث يغمراسن ابنه إبراهيم المكنى بأبي عامر في وفد من قومه لإتمام ذلك العقد، فاعتمد السلطان مبرّتهم وأسعف فئ وأقاموا بالحضرة أياماً. وظهر من إقدامهم في فتن الدعي مقامات، وانصرفوا

بظعينهم سنة إحدى وثمانين وستمئة مجبورين محبورين. وابتنى بها عثمان لحين وصولها فكانت من عقائل قصورهم ومفاخر دولتهم، وذكراً لهم ولقومهم آخر الأيام.

الخبر عن ظهور الدعي ابن أبي عمارة وما وقع من الغريب في أمره:

كان أحمد بن مرزوق بن أبي عمارة من بيوتات بجاية الطارئين عليها من المسيلة، ونشأ ببجاية وسيما محترفاً بصناعة الخياطة غراً غمراً. وكان يحدث نفسه بالملك لما كان العارفين زعم يخبرونه بذلك. وكان هو بخط فيريه خطه ذلك. ثم اغترب عن بلده ولحق بصحراء سجلماسة، واختلط بعرب المعقل وانتفى إلى أهل البيت، وادعى أنه الفاطمي المنتظر عند الأغمار، وأنه يحيل المعادن إلى الذهب بالصناعة فاشتملوا عليه وتحدثوا بشأنه أياماً. أخبرني طلحة بن مظفر من شيوخ العمارية إحدى بطون المعقل أنه رآه أيام ظهوره في المعقل ملتبساً بتلك الدعوى حتى فضحه العجز. ثم لما زهدوا فيه لعجز مدعاه ذهب يتقلب في الأرض حتى وصل إلى جهات طرابلس، ونزل

على دباب وصحب بينهم الفتى نصيراً مولى الواثق بن المستنصر، ويلقب نوبى. ولما رآه تبين فيه شبيهاً من الفضل ابن مولاة فطلق بيكي ويقبل قدميه فقال له ابن أبي عمارة: ما شأنك؟ فقص عليه الخبر فقال له: صدقني في هذه الدعوى وأنا أثرك من قاتلهم.

وأقبل نصير على أمراء العرب منادياً بالسرور بابن مولاة، حتى خيل عليهم. ثم لبس بما دس إلى ابن عمارة من محاورات وقعت بين العرب وبين الواثق، قضها عليهم ابن أبي عمارة نفيًا للريب بأمره فصدقوا واطمأنوا وأتوه بيعتهم. وقام بأمره مرعم بن صابر بن عسكر أمير دباب. وجمع له العرب ونازلوا طرابلس، وبها يومئذ محمد بن عيسى الهنتاتي وبشهر بعنق الفضة فامتنعت عليهم، ورحلوا إلى مجريس الموطنين بزنزور وجهاتها من هواره فأوقعوا بهم. ثم سار في تلك النواحي واستوفى جبايته ولماية وزوارة وزواغة، وأغرم نفوسه وغريان ومقر من بطون هواره وضائع ألزمهم إياها واستوفاهما. ثم زحف إلى قابس فبايع له عبد الملك بن مكى في رجب سنة إحدى وثمانين وستمائة، وأعطاه صفقته طواعية، وفاه بحق آبائه فيما طوقوه ذريعة إلى الاستقلال الذي كان يؤمله، وأعلن بخلافته ونادى في قومه واستخدم له بني كعب من سليم ورياستهم إذ ذاك في بني شيحة لعبد الرحمن بن شيحة، فأجابوا داعية وأنابوا إلى خدمته. وتوافت إليه بيعة أهل جربة والحامة وقرى نفاوة. ثم زحف إلى توزر وبلاد قسطلية فأطاعوه. ثم رجع إلى قفصة فبايع له أهلها، وعظم أمره وعلا صيته. فجهز إليه السلطان أبو إسحق العساكر من تونس كما نذكره والله تعالى أعلم.

الخبر عن انفضاض عساكر السلطان وتقويضه عن

تونس:

لما تفاقم أمر الدعي بنواحي طرابلس، ودخل الكثير من أهل الأمصار في طاعته

جهز السلطان عساكره وعقد لابنه الأمير أبي زكريا على حربه، فخرج من تونس ونزل القيروان، واقتضى منها غرامات ووضائع واستأثر منها بأموال. ثم ارتحل إلى لقاء الدعي وانتهى إلى تمودة، وبلغه هنالك ما كان من استيلاء الدعي على قفصة، فأرجف به المعسكر وانفضوا من حوله. ورجع إلى تونس فدخلها آخر يوم من رمضان من سنته، وارتحل الدعي على أثره من قفصة واحتل بالقيروان، فبايع له أهلها واقتدى بهم أهل المهديّة وصفاقس وسوسة فبايعوا له وكثر الإرجاف بتونس، فاضطرب السلطان معسكره بظاهر البلد وسط شوال. وضرب الغزو على الناس واستكثر من العدد، وخرج إلى معسكره بالمهديّة وتلوم بها لإزاحة العلل. وارتحل الدعي من القيروان زاحفاً إليه فتسربت إليه طبقات الجنود ومشيخة الموحدين، رضي بمكانه وصاغية إلى بني المستنصر خليفتهم الطويل أمد الولاية عليهم، ورحمة لما نال الوثاق وأبناءه من عمهم. ثم انفض عن السلطان كبير الدولة موسى بن ياسين في معظم الموحدين ولقي الدعي بطريقه فاختل أمر السلطان وانتقضت على ملكه وفر إلى بجاية كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن لحاق السلطان أبي إسحق ببجاية ودخول

الدعي ابن أبي عمارة إلى تونس وما كان أمره بها:

ولما انفض معسكر السلطان أبي إسحق آخر شوال من سنة إحدى وثمانين وستمائة ركب في خاصته وبعض جنوده ذاهباً إلى بجاية، ومر بتونس فوقف عندها حتى احتمل أهله وولده، وسار في كلب البرد فكان يعاني من قلة الأقوات وتعاور المطر والثلج شدة. وكان يصانع القبائل في طريقه ببذل ماله. ثم مر بقسنطينة فمنعه عاملها عبد الله بن يوقيان الهرغي من دخولها، وقرب إليه بعض القرى من الأقوات، وارتحل إلى بجاية

فكان من أمره ما يذكر. ودخل الدعي ابن أبي عمارة إلى الحضرة، وقلد موسى بن ياسين وزارته وأبا القاسم أحمد ابن الشيخ حجابته. وتقبض على صاحب الأشغال أبي بكر بن الحسن بن خلدون فاستصفاه وصادره على مال امتحنه عليه. ثم قتله خنقاً، وصرف خطة الجباية إلى عبد الملك بن مكي رئيس قابس. واستكمل ألقاب الملك، وقسم الخطط بين رجال الدولة وصرف همّه إلى غزو بجاية.

الخبر عن استبداد الأمير أبي فارس بالأمر عند وصول أبيه إليه:

لما وصل السلطان أبو إسحق إلى بجاية شهر ذي القعدة من سنته طريداً عن ملكه عاطلاً عن حلى سلطانه، انتقض عليه ابنه الأمير أبو فارس ومنعه من الدخول إلى قصره، فنزل بروض الرفيع، وأراده على الخلع فانخلع له. وأشهد الملاء من الموحدين ومشيخة بجاية بذلك، وأنزله قصر الكوكب ودعا الناس إلى بيعته آخر ذي القعدة، فبايعوه وتلقب المعتمد على الله. ونادى في أوليائه من رياح وسدويكش. وخرج من بجاية زاحفاً إلى الدعي، واستخلف عليها أخاه الأمير أبا زكريا. وخرج معه عمه الأمير أبو حفص وإخوته، فكان من أمرهم ما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن زحف الأمير أبي فارس للقاء الدعي ثم

انهزامه أمامه واستلحامه وإخوته في المعركة وما كان

أثر ذلك من مهلك أبيهم السلطان أبي إسحق وفرار

أخيهم الأمير أبي زكريا إلى تلمسان:

لما بلغ الخبر إلى الدعي باستبداد الأمير أبي فارس على أبيه واستعداده للقاءه

تقبض على أهل البيت الحفصي، فاعتقلهم بعد أن هم بقتلهم. وخرج من تونس في عساكره من الموحدين وطبقات الجند في صفر سنة إثنيتين وثمانين وستمئة، فانتهى إلى مرماجنة، وتراءى الجمعان ثالث ربيع الأول فاقتتلوا عليه يومهم. ثم اختل مصاف الأمير أبي فارس. وتخاذل أنصاره فقتل في المعركة، وانتهب معسكره وقتل أخواته جميعاً صبراً: عبد الواحد قتله الدعي بيده، وعمر وخالد ومحمد بن عبد الواحد. وبعث برؤوسهم إلى تونس، فطيف بها على الرماح ونصبت بأسوار البلد. وتخلص عمه الأمير أبو حفص من الواقعة إلى أن كان من أمره ما نذكر. وبلغ خبر الواقعة إلى بجاية فاضطرب أهلها وماجوا بعضهم في بعض. وجمعهم قاضيهم أبو محمد عبد المنعم بن عتيق الجزائري للحديث في الشأن فتكالبوا، وزجرهم ابنه فقتلوا. ثم أشخصوا القاضي إلى بلده في البحر. وخرج السلطان أبو إسحق وإبنة الأمير أبو زكريا إلى تلمسان، فقدم أهل بجاية عليهم محمد بن أسرعين قائماً فيهم بطاعة الدعي، وخرج في أتباع السلطان فأدركه بجبل بني غبرين من زاوية، فتقبض عليه، ونجا الأمير أبو زكريا إلى تلمسان، وبقي السلطان أبو إسحق ببجاية معتقلاً ريثما بلغ الخبر إلى تونس، وأرسل الدعي محمد بن عيسى بن داود فقتله آخر ربيع الأول سنة إثنيتين وثمانين وستمئة، وانقضى أمره ولله عاقبة الأمور لا رب غيره ولا رب سواه.

الخبر عن ظهور الأمير أبي حفص وبيعته وما كان

علي أثر ذلك من الأحداث:

قد ذكرنا أن الأمير أبا حفص حضر واقعة بني أخيه مع الدعي بمرماجنة، فخلص من المعركة راجلاً، ونجا إلى قلعة سنان معقل هواره القريب من مكان الملحمة، ولاذ به في ذهابه إلى منجاته ثلاثة من صنائعهم: أبو الحسين بن أبي بكر بن سيد الناس، ومحمد بن القاسم بن إدريس الفازازي، ومحمد بن أبي بكر بن خلدون، وهو جد المؤلف الأقرب. وربما كانوا يتناقلونه على ظهورهم إذا أصابه الكلال. ولما نجا إلى قلعة سنان تحدث به الناس، وشاع خبر منجاته إليها.

وكان الدعي قد أسف العرب وثقلت وطأته عليهم بما كان يسيء الملكة فيهم. فليوم دخوله شكى إليه الناس

عيتهم فتقبض على ثلاثة منهم وقتلهم وصلبهم. ثم سرح شيخ الموحدين عبد الحق بن تافراكين لحسم عللهم وأوعز إليه بالإثخان فيهم، فاستلحم لمن لقي منهم. ثم تقبض على مشايخ بني علاق، وأودع سجونه منهم نيفاً على ثمانين، فساء أثره فيهم وتطلبوا أعياص البيت، وتسامعوا بخبر الأمير أبي حفص بمكانه من قلعة سنان، فدخلوا إليه وأتوه بيعتهم في ربيع سنة ثلاث وثمانين وستمئة. وجمعوا له شيئاً من الآلة والأخبية وقام بأمره أبو الليل بن أحمد أميرهم. وبلغ الخبر إلى الدعي فداخلته الظنة في أهل دولته. وتقبض على أبي عمران بن ياسين شيخ دولته، وعلى أبي الحسن بن ياسين وابن وانودين، وعلى الحسين بن عبد الرحمن يعسوب زناتة فامتحنهم واستصفى موالهم. ثم قتلهم آخرًا، وتوجع لهم الناس واضطرب أمر الدعي إلى أن كان ما نذكره انتهى.

الخبر عن خروج الدعي ورجوعه واستيلاء السلطان

أبي حفص علي ملكه وغلبه ومهلكه:

لما ظهر السلطان أبو حفص وبايعه العرب تسامع أهل الحضرة واجتمع إليه الناس، وأوقع الدعيّ بأهل الدولة فمقتوه. وخرج من تونس يريد قتاله فأرجف به أهل معسكره ورجع منهزماً. ودخلت البلاد في طاعة السلطان أبي حفص ونهض إلى تونس فنزل بسحوم قريباً منها. وعسكر الدعي بظاهر البلد تجاهه، وطالت بينهما الحرب أياماً والناس في كل يوم يستوضحون خبء الدعي ومكره إلى أن تبرأوا منه وأسلموه، ودخل من مكان معسكره ولاذ بالاختفاء. ودخل السلطان البلد في ربيع الاخر سنة ثلاث وثمانين وستمئة واستولى على سرير ملكه وطهر من الدنس فاضحه ودعيه، واختفى الدعي بتونس وغاص في لجة ساكنها وأحاط به البحث فعثر عليه لليال من مدخل السلطان بدول بعض السوقة يعرف بأبي القاسم القرمادي فهدمت لحينها. وتل إلى السلطان فأحضر له الملاً ووبخه وساءله فاعترف بادعائه في بيتهم فأمر بامتحانه وقتله. وذهب في غير سبيل مرحمة، وطيف بشلوه، ونصب

رأسه. وكان عبد الله بن يغمور المباشر لقتله، وكان خبره من المثلات. واستبد السلطان بملكه وتلقب المستنصر بالله. وبادر الناس إلى الدخول في طاعته. وبعث أهل القاصية بيعتهم من طرابلس وتلمسان وما بينهما. وعقد للشيخ أبي عبد الله الفازاري على عسكره وعلى الحروب والضاحية، وأقطع البلاد والمغارم للعرب رعيًا لذمة قيامهم بأمره، ولم يكن لهم قبلها إقطاع. وكان الخلفاء قبله يتحامون عن ذلك ولا يفتحون فيه على أنفسهم بابًا، وأقام متحليًا ملكه وادعًا في حضرته إلى أن كان ما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن استيلاء العدو علي جزيرة جربة وميورقة ومنازلته المهدية وأجلابه علي السواحل:

كان من أعظم الحوادث في أيام هذا السلطان تكالب العدو على الجزر البحرية فاستولت أساطيلهم على جزيرة جربة في رجب من سنة ثلاث وثمانين وستمئة ورياستها يومئذ من محمد بن سمون شيخ الوهبيّة، ويخلف بن أمغار شيخ النكارّة، وهما فرقتا الخوارج. وزحف إليها المراكيا صاحب صقلية نائباً عن الغدريك بن الريدكون ملك برشلونة في أساطيله البحرية، وكانوا فيما قيل سبعين أسطولاً من غربان وشواني، وضايقهم مراراً. ثم تغلبوا عليها فانتهبوا أموالها واحتملوا أهلها أسرى وسبيًا، يقال أنهم بلغوا ثمانية آلاف بعد أن رموا بالرصع في الجيوب، فكانت هذه الواقعة من أشجى الوقائع للمسلمين. ثم بنوا بساحلها حصناً واعتمروه وشحنوه حاميةً وسلاحاً. وفرض عليهم المغرم مائة ألف دينار في سنة، وأقاموا على ذلك. وهلك المراكيا على رأس المائة، وبقيت الجزيرة في ملكة النصارى إلى أن أعادها الله في أواخر الأربعين والسبعماية كما نذكر.

وفي سنة خمس وثمانين وستمئة ظفر العدو بجزيرة ميورقة ركب إليها طاغية برشلونة في أساطيله في عشرين ألفاً من الرجال المقاتلة، ومروا بميورقة كأنهم سفر من التجار وطلبوا من أبي عمر بن حكم رئيسها النزول للاستقاء فأذن لهم. فلما تساحلوا أذنوا أهلها بالحرب فتزاحفوا ثلاثاً يثخن فيهم المسلمون في كلها قتلاً وجراحة بما يناهز الآف، والطاغية في بطارقه قاعد عن الزحف فلما كان في اليوم الثالث واستولت الهزيمة علي قومه زحف الطاغية في العسكر فانهزم المسلمون، ولحق إلى قلعته فأنحصر بها وعقدوا لابن حكم ذمة في أهله وحاشيته، فخرجوا إلى سبتة ونزل الباقون على حكم العدو فأجازهم إلى جارتهم ميورقة واستولى على ما فيها من الذخيرة والعدّه والأمر بيد الله وحده.

وفي سنة ست وثمانين وستمئة بعدها غدر النصارى بمرسى الخرز فاقتحموها بعد أن ثلموا أسوارها واكتسحوا ما فيها، واحتملوا أهلها أسرى وأضرموا بيوتها ناراً. ثم مروا بمرسى تونس وانصرفوا إلى بلادهم، وفيها أو في سنة تسع وثمانين وستمئة بعدها نازل أسطول العدو مدينة المهديّة، وكان فيهم الفرسان لقتالها فزحفوا إليها ثلاثاً ظفر بهم المسلمون في كلها. ثم جاء مدد أهل الأجم فانهزم العدو حتى اقتحموا عليهم الأسطول، وانقلبوا خائبين وتمت النعمة.

الخبر عن استيلاء الأمير أبي زكريا علي الثغر العربي

بجاية والجزائر وقسنطينة و أولية ذلك ومصائره:

كان للأمير أبي زكريا ابن السلطان أبي إسحق من الترشيح للأمر بهديه وشرف همته وحسن ملكته، ومخالطته أهل العلم ما شهد له بمغبة حاله، وهو الذي اختط المدرسة للعلم بإزاء دار الأقوري حيث كان سكناه بتونس. ولما لحق بتلمسان بعد منجاته من مهلك أبيه ببجاية، نزل على صهره عثمان بن يغمراسن بتلمسان، وجاء في أثره أبو الحسين بن أبي بكر بن سيّد الناس صنيعه أبيه وأخيه، بعد أن خلص مع السلطان أبي حفص من الواقعة إلى مرماجة. فلما بايع له العرب وبدت مخايل الملك رأى أبو

الحسين إيثار السلطان للفازاري عليهم فنكب عنه، ولحق بالأمير أبي زكريا بتلمسان واستحثه لطلب ملكه. واستقرض من تجار بجاية هنالك مالاً أنفقه في إقامة أبهة الملك له، وجمع الرجال واصطنع الأولياء.

وفشا الخبر بما يرومه من ذلك فصدّه عثمان بن يغمراسن عنه، لما كان تقلد من طاعة السلطان أبي حفص على سننهم مع الخلفاء بالحضرة قبيله، فاعتزم الأمير أبو زكريا على شأنه، وخرج من تلمسان مورّياً بالصيد الذي كان ينتحله أيام مقامه بينهم، ولحق بدّاود بن هلال بن عطاف أمير بني يعقوب، وكافة بني عامر من زغبة وأوعز عثمان بن يغمراسن إلى داود برده إليه فأبى من إخفار ذمّته، وارتحل معه بقومه إلى آخر بلاد زغبة، ونزلوا على عطية بن سليمان بن سباع من رؤساء الزواودة، فتلقاه بالطاعة وارتحلوا جميعاً إلى ضواحي قسنطينة فدخل العرب وسدويكش في طاعته.

ونزل البلد سنة ثلاث وثمانين وستمائة، وعاملها يومئذ ابن يوقيان من مشيخة الموحدين، وكان صاحب الجباية بها أبو الحسن بن طفيل. كان له من العامل فداخل الأمير أبا زكريا في شأن البلد، وشرط لنفسه وصهره فأمضى السلطان شرطهم وأمكنوه من البلد. وأقاموا بها دعوتهم، وارتحل إلى بجاية وكانت قد حدث فيها اضطراب بين أهلها أدّى إلى الخلاف والتباين. واستحثوا الأمير أبا زكريا فأغذ السير إليهم ودخلها سنة أربع وثمانين وستمائة. ويقال إن ملكه لبجاية كان سابقاً على ملكه لقسنطينة وهو الأصح فيما سمعناه من شيوخنا. وبعث إليه أهل الجزائر وتدلّس بطاعتهم فاستولى على هذه الثغور العربية، وتلقب المنتخب لإحياء دين الله. وأغفل ذكر أمير المؤمنين أدباً مع عمه الخليفة بالحضرة حيث مالاً الموحدين أهل الحل والعقد من الجماعة. ونصب للحجّابة أبا الحسين بن سيد الناس فقام بها، ورشّح ملكه ومملك بنيه بهذه الناحية الغربية، وانقسمت به الدولة إلى أن خلس الأمر للملوّك من عقبه واستولوا على الحضرة كما نذكره إن شاء الله تعالى

الخبر عن حركة الأمير أبي زكريا إلي ناحية طرابلس ومنازلة عثمان بن يغمراسن بجاية في مغيبه:

لما استولى الأمير أبو زكريا على الناحية الغربية، واقتطعها من أعمال الحضرة اعتمل في الحركة على تونس فنهض إليها في سنة خمسة وثمانين وستمائة، ووفد عليه عبد الله بن رحاب بن محمود من مشيخة دباب، ومانعه الفازازي عن أحواز تونس فنازل قابس وحاصرها، وكان له في قتالها أثر واستوت الهزيمة على مقاتلها ذات يوم فأثن فيهم قتلاً وأسراً، وهدم ربضها وأحرق المنازل في غابتها والنخل، وارتحل إلى مسراته، وانتهى إلى الأبيض وأطاعه الجواري والمحاميد وآل سالم وعرب برقة، وبلغه بمكانه من مسراته أن عثمان بن يغمراسن أسف إلى منازلة بجاية، وكان من خبره أن الأمير أبا زكريا لما فصل من تلمسان لطلب ملكه على كره منه، وامتنع جاره داود بن عطف من رده امتلاً له عداوة وانحرافاً، وجدد البيعة لصاحب تونس، وأوفد بها على ابن محمد الخراساني من صنائعه. وكان له أثناء ذلك ظهور على بني توجين ومغراوة بالمغرب الأوسط وضاق ذرع أهل الحضرة بمكان الأمير أبي زكريا من مطالبتهم وتدويخه لقاصيتهم، فدخلوا عثمان بن يغمراسن في منازلة معقله ثغر بجاية ليردوه إلى عقبه عنهم، فزحف إلى بجاية سنة ست وثمانين، ونازلها أياماً، وامتنع عليه سائر ضواحيها، ولم يظفر بأكثر من الاطلال عليها. وانكفاً الأمير أبو زكريا راجعاً إلى بجاية سنة ست وثمانين وستمائة إلى أن كان من أمره ما نذكر.

الخبر عن فاتحة استبداد أهل الجريد:

كان في بعض الأيام بين سداة وكنومة من عمل تقيوس فتنة قتل فيها ابن لشيخ سداة، وأقسم ليثأرن فيه بشيخ كثومة نفسه، وكان عامل توزر محمد بن يحيى بن

أبي بكر التينملي من مشيخة الموحدين، فتذمّ شيخ كنومة به، وبذل له مالاً على نصره من عدّوه فكاتب الحضرة وأعلن بخلاف أهل سداده. واحتشد لهم أهل نفطة وتقيوس، وخرج هو في حشد أهل توزر غزاهم في بلدهم ولاذ بإعطاء الرهن، وبذل المال فلم يقبل فأمدهم أهل نفاوة وزحفوا إليه، فانهزمت جموعه وأثخنوا فيهم قتلاً وأسرا إلى توزر، وذلك سنة ست وثمانين وستمئة. ثم عاود غزوهم عقب ذلك فبلخوا عليه ثم عقد لهم سلماً على الوفاء بمغارمهم واشترطوا أن لا حكم عليهم في سواهم، وأن رؤساء نفاوة منهم فأمضى شرطهم وكانت أول استبداد الجريد كما نذكر إن شاء الله.

الخبر عن خروج عثمان ابن السلطان أبي دبوس داعياً لنفسه بجهات طرابلس:

كان أبو دبوس آخر خلفاء بني عبد المؤمن بمراكش لما قتل سنة ثمان وستين وستمئة، وافترق بنوه وتقلبوا في الأرض، لحق منهم عثمان بشرق الأندلس. ونزل على طاغية برشلونة فأحسن تكريمه، ووجد هنالك أعقاب عمه السيد أبي زيد المتنصر أخي أبي دبوس في مثواهم من إيالة العدوّ. وكان لهم هنالك مكان وجاه لنزوع أبيهم السيّد أبي زيد عن دينه إلى دينهم فاستبلغوا في مساهمة قريتهم هذا الوافد، وخطبوا له من الطاغية حظاً. ووافق ذلك حصول مرغم بن صابر بن عسكر شيخ الجوالي من بني دباب في قبضة أسره، وكان قد أسره العدى من أهل صقلية بنواحي طرابلس سنة اثنتين وثمانين وستمئة، وباعوه من أهل برشلونة فاشتراه الطاغية، وأقام عنده أسيراً إلى أن نزع إليه عثمان بن أبي دبوس هذا كما ذكرناه. وشمر لطلب حقه في الدعوة الموحديّة حيث كانت. وأمّل الظفر في القاصية لبعدها عن الحامية، فعبر البحر إلى طرابلس وكان من حظوظ كرامته عند الطاغية أن أطلق له مرغم بن صابر، وعقد له خلقاً معه على مظاهرتة، وجهز لهما الأساطيل، وشحنها بالمدد

من المقاتلة والأقوات على مال شرطوه، له فنزلوا على طرابلس سنة ثمان وثمانين وستمائة، واحتشد مرغم قومه وحملهم على طاعة ابن أبي دُبوس، ونزلوا البلد معه ومع جنده من النصرانية فحاصروها ثلاثاً، وساء أثرهم فيها. ثم دخل النصارى بأسطولهم وأرسوا بأقرب السواحل إلى البلد وتنقل ابن أبي دُبوس ومرغم في نواحي طرابلس بعد أن أنزلوا عليها عسكرياً للحصار، فاستوفوا من جباية المغارم والوضائع مالاً دفعوه للنصارى في شرطهم، وانقلبوا بأسطولهم. وأقام ابن أبي دُبوس يتقلب مع العرب. واستدعاه ابن مكّي من بعد ذلك لأنه يشبه به في استبداده، فلم يتم أمره إلى أن هلك بجربة والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن مهلك أبي الحسين بن سيّد الناس صاحب

بجاية وولاية ابن أبي جيبي مكانه:

قد قدمنا سلف هذا الرجل وأوليته، وأنه لحق بالأمير أبي زكريا بتلمسان وأبلى في خدمته، فلما استولى الأمير أبو زكريا على الثغر الغربي، واقتطعه عن أعمال الحضرة. ونزل بجاية وضاهى بها تونس، عقد لأبي الحسين بن سيد الناس على حجابته، وفوض إليه فيما وراء بابه، وأجراه في رياسته على سنن ابن أبي الحسين الرئيس قبله في دولة المستنصر الذين كانوا يتلقنون طريقه، وينزعون إلى مراميه، بل كانت رياسته هذا في حجابته أبلغ من رياسته ابن أبي الحسين لخلاء جو الدولة ببجاية من مشيخة الموحدية الذين يزاحمون، كما كان ابن أبي الحسين مزاحماً بهم، فاستولى أبو الحسين بن سيد الناس على الدولة ببجاية، وقام بأمر مخدمه أحسن قيام، وصار إلى الحل والعقد وانصرفت إليه الوجوه وتمكن في يده الزمام، إلى أن هلك سنة تسعين وستمائة أعظم ما كان رياسته وأقرب من صاحبه مكاناً وشرفاً فأقام الأمير أبو زكريا مكانه، كاتبه أبا القاسم ابن أبي حيّ، لا أدري من أوليته أكثر من أنه من جالية الأندلس، وردّ على الدولة، وتصرف في أعمالها، واتصل بأبي الحسين بن سيّد

الناس فاستكتبه ثم رَقَّاه واستخلصه بنفسه، وأجرَّه رسنه، وتناول زمام الدولة من يد ابن سيِّد الناس، فقادها في يد مظهر خدمته حتى عنت إليه الوجوه وأمله الخاصة، واضطلع السلطان على اضطلاعهم وكفايته في أمور مخدمته. وهلك أبو الحسين بن سيد الناس فرشح السلطان بخطته فقام بها سائر أيامه وصدرًا من أيام ابنه الأمير أبي البقاء حتى كان من أمره ما نذكره بعد.

الخبر عن خروج الزاب عن طاعة الأمير أبي حفص

إلى طاعة الأمير أبي زكريا صاحب بجاية وانتظام بسكرة في جماعه:

كان السلطان أبو إسحق قد عقد على الزاب لفضل بن علي بن مزني من مشيخة بسكرة كما قدمناه، فقام بأمره. ولما هلك السلطان عدا عليه بعض أفاريق العرب الموطنين قرى الزاب بمدخلة قوم من أعدائه، وقتلوه سنة ثلاث وثمانين وستمئة كما نذكره. وأملوا الاستبداد بالبلد فدفعهم عنها المشيخة من بني رمان، واستقلوا بأمر بلدهم، وبايعوا للأمير أبي حفص صاحب الحضرة ودانوا بطاعته على السنن. وتوقعوا عادة منصور بن فضل بن مزني. وكان لحق بالحضرة عند مهلك أبيه فخاطبوا فيه السلطان أبا حفص ورموه بالدواهي فأمر باعتقاله، وأودع السجن سبع سنين إلى أن فر منه ولحق بكرفة من أحياء هلال بن عامر، وهم العرب المتولون أمر جبل أوراس. ونزل على الشبه من أفاريقهم فأركبوه وكسبوه ولحق ببجاية سنة إثنين وتسعين وستمئة فنزل بباب السلطان. ورغبه

في ملك الزاب، وصانع الحاجب ابن أبي جبي بأنواع التحف، وضمن له تحويل الدعوة بالزاب لسلطانه الأمير أبي زكريا وتسريب جبايته إليه، فاستماله بذلك وعقد له على الزاب وأمدّه بالعسكر، ونازل بسكرة فامتنعت عليه. ورأى مشيختها بنو رمان بعدهم عن صريخ تونس، وإلحاح عدوهم منصور بن فضل عليهم فأعلنوا بطاعة الأمير أبي زكريا وبعثوا إليه بيعتهم ووفدهم ورفع عادة ابن مزني عنهم، فرجعهم بما أملوه من القبول، وأن تكون

أحكامهم إلى قائد عسكره. ونظر ابن مزني مصروفًا إلى الجباية فقط. ولما وصل الوفد إلى بسكرة خرجوا إلى القائد ومنصور بن مزني، فأدخلوهما البلد ودانوا بالطاعة، وتصرفت الأمور على ذلك إلى أن كان من أمر منصور بن مزني ما نذكره في أخباره، ولم يزل الزاب في دعوة الأمير أبي زكريا وبنيه إلى أن استولى على الحضرة وبعده لهذا العهد، كما تراه في الأخبار بعد إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مهلك أبي عبد الله الفازازي شيخ الموحدين والحاجب أبي القاسم ابن الشيخ رؤساء الدولة بالحضرة:

كان أبو عبد الله الفازازي من مشيخة الموحدين، وكان خالصة للسلطان أبي حفص، وعقد له على العساكر كما قدمناه ودفعه إلى الحروب وتمهيد النواحي، فقام في ذلك المقام المحمود، ودوّخ الجهات واستنزل الثّوار ودفعهم، وجبى الخراج، وكانت له في ذلك آثار مذكورة، وفي بلاد الجريد ومشيختها تصاريف وأحوال. وهو الذي امتحن أحمد بن يملول بسعاية المشيخة من أهل توزر، وكبح عنانه عن مراميه إلى الرياسة عليهم، وهلك آخر حركاته إلى بلاد الجريد على مرحلتين من تونس سنة ثلاث وتسعين وستمئة. ولسنة منها كان مهلك الحاجب أبي القاسم ابن الشيخ وكان من خبر أوليته أنه قدم من بلده دانية إلى بجاية سنة ست وعشرين وستمئة، واتصل بعاملها محمد بن ياسين، فاستكتبه وغلب عليه.

واستدعى ابن ياسين إلى الحضرة وابن الشيخ في جملته، والتمس السلطان من يرشحه لكتابته ويخف عليه، فأطنب ابن ياسين في وصف كاتبه أبي القاسم بن الشيخ وحلاه، وابتلاه السلطان فلم يرضه وصرفه، ثم راجع رأيه فيه واستحسنه ورسمه في خدمته. وأمر ابن أبي الحسين بتلقيه الآداب وتصريفه في وجوه الخدمة ومذاهبها، فكان له في ذلك غناء وخفة على مخدمه إلى أن هلك ابن أبي الحسين. وكان الخرج بدار السلطان موقوفاً على نظره من جملة ما إليه. وكان قلمه عاملاً فيه فأفرد ابن الشيخ بذلك بعد مهلكه إلى آخر أيام السلطان المستنصر. ولما ولي السلطان

الواثق استبد ابن الحبير عليه كما قلناه، فأبقاه على خطته واختصه لنفسه ودرجه في جملته. ثم جاءت دولة السلطان أبي إسحق فأقامه في رسمه وزاحمه بأبي بكر بن خلدون صاحب أشغاله. وكان الرياسة الكبرى على عهده لبنيه أبي فارس، ثم أبي زكريا وأبي محمد عبد الواحد من بعده. ثم كانت مضلة الدعي، واستولى على ملكهم فاستخلص أبا القاسم ابن الشيخ، واستضاف له إلى خطة التنفيذ كتاب العلامة في فواتح السجلات. فلما ارتجع السلطان أبو حفص ملكه وقتل الدعي، خافه ابن الشيخ لما كان من رتبته عند الدعي فلاذ بالصلحاء لإثارة من الخير والعبادة وصلت بينهم وبينه فشفعوا له وتقبلها السلطان، وأظهر لهم ذات نفسه في الحاجة إلى استعماله وقلده حجابته مجموعة إلى تنفيذ الخرج وصرف العلامة إلى غير ذلك من طبقة الدولة فلم يزل على ذلك إلى أن هلك سنة أربع وتسعين. وستمائة وبقي إسم الحجابة من بعده في هذه الخطط الثلاث، وأمر التدبير والحرب ورياستهما راجع إلى مشيخة الموحدين إلى أن تصرفت الأحوال، وأدبل بعضها من بعض كما يأتيك أثناء الأخبار، وقلد السلطان من بعد ابن الشيخ حجابته لأبي عبد الله التحتي من طبقة الجند فقام بها إلى آخر الدولة، والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن مهلك السلطان أبي حفص وعهده بالأمر

من بعده:

لم يزل السلطان أبو حفص على أكمل حالات الظهور والدعة إلى أن استوفى مدته، وأصابه وجعه أول ذي الحجة من سنة أربع وتسعين وستمائة. ثم اشتد به الوجع وأهمه أمر المسلمين وما قلده من عدتهم، فعهد لابنه عبد الله بالخلافة ثاني أيام التشريق. ونكره الموحدون لتخلفه عن المراتب بصغره، وأنه لم يحتلم، وتحدثوا في ذلك. وأفضى الخبر إلى السلطان فأسخطه، وعدل عنهم إلى الشورى مع الولي أبي محمد المرجاني. وكان

رأيه فيه جميلاً وظنه به صالحاً. وكان الواثق بن المستنصر لما قتل هو وبنوه بمحبسهم فرث إحدى جواريه، وقد اشتملت على حمل منه إلى رباط هذا الولي فوضعت في بيته فسمّاه الشيخ محمداً وعق عليه، وأطعم الفقراء يومئذ عصيدة الحنطة، فلقب بأبي عصيدة آخر الدهر. ثم صار بعد الاختفاء ودواعيه إلى قصورهم ونشأ في ظل الخلفاء من

قومه، حيث شب وبقيت له مع الولي أبي محمد ذم يثابر كل منهما على الوفاء بها، فلما فاوضه السلطان أبو حفص في شأن العهد، وقص عليه نكير الموحدين لولده، أشار عليه الشيخ بصرف العهد إلى محمد بن الواثق فتقبل إشارته وعلم ترشيحه، وأنفذ بذلك عهده بمحضر الملام ومشيخة الموحدين، وهلك آخر ذي الحجة سنة أربع وتسعين وستمائة وإلى الله المصير.

الخبر عن دولة السلطان أبي عصيدة وما كان أثرها من الأحوال:

لما هلك السلطان أبو حفص اجتمع الملام من الموحدين والأولياء والجنود والكافة

إلى القصبة، فبايعوا بيعة عامة لولي عهده السلطان أبي عبد الله محمد، ويلقب كما ذكرناه بأبي عصيدة بن السلطان الواثق في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة أربع وتسعين وستمائة، فانشرحت لبيعته الصدور ورضيته الكافة، وتلقب المستنصر بالله. وافتتح أمره بقتل عبد الله ابن السلطان أبي حفص لمكان ترشيحه، وقلد وزارته محمد بن بربرزيكن من مشيخة الموحدين، وأبقى محمد الشخشي على خطة الحجابة، وصرف التدبير والعساكر ورياسة الموحدين إلى أبي يحيى زكريا بن أحمد بن محمد اللحياني قتيل السلطان المستنصر، عند تعرض ابنه للبيعة، واستنامة الخلافة فقام بما دفع إليه من ذلك. وضايقه فيه عبد الحق بن سليمان رئيس الموحدين قبله، حتى إذا نكب وهلك استبد هو على الدولة، واستقل الشخشي بحجابته. وكان محمد بن إبراهيم بن الدباغ رديفاً له فيها.

وكان من خير ابن الدباغ هذا أن إبراهيم أباه وفد على تونس في جالية أشبيلية سنة

ست وأربعين وستمائة، فولد هو بتونس ونشأ بها، وأفاد صناعة الديوان وحسابه- وكان من المبرزين فيه أبي الحسن وأبي